مسلوب الكرامة

اسم الكتاب: مسلوب الكرامة
اسم الكاتب: محسن عتيق خان
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 2020 / 21975
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 21 – 1

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

مسلــوب

الكـــرامـــة

مجموعة قصصية

محسن عتيق خان

للنشر والتوزيع
Arabic Library

الإهـــداء

إلـــــى

كل من أُخرِج من دياره

وكل من عُذب في بلاده

وكل من اضطُهد في موطنه

وكل من سُلبت كرامته في أرضه

تقديم

انعكاسٌ على مرايا الهوان....

وصلتني المجموعة القصصية **"مسلوب الكرامة"** في مادتها الخام كما صقلها الدكتور محسن عتيق خان، وإبان الوصول كانت الذهنية لديّ لا تزال وفية لنمط القصة القصيرة كما قرأتُها، وحتى كما كتبتها منذ شهور قليلة خلت، لكن – وصدقاً- لم أكن أتوقع أن تترك فيّ هذه المجموعة من خلال نصوصها وثيماتها هذا الأثر الذي جعلني بداية أكرر القراءة، ثم التأمل لحظات في المضمون، قبل رسم هذه الكلمات حولها من جهة نظر قارئ قد يختلف مع الكاتب من حيث البيئة، لكن يتقاسم وإياه القيم والرسالة.

وأنت تُشرِّع الباب نحو فضاء هذه المجموعة، فتتلقى أولى الصدمات من خلال كلمات الإهداء المرتشفة من ينبوع العمق والصدق، لتنتقل إلى كلمة الكاتب يفتح لك حضنه طالبا منك جلسة خفيفة حتى تسمع منه، وهو الذي سمع من شخصيات مجموعته كثيرا، تعود وإياه القهقرى في الزمان والمكان تفتشان عن الدوافع والمسببات التي أنشأت –من حيث لا تدري- كاتباً عشق القلم والصفحات، وجعل من الهم الإنساني منطلقا

للإبداع والفكر والتأمل، ويكفى أن تقرأ عن معاناةٍ طغت في الماضي محاوِلةً كسر القلم وإهراق الحبر لزرع اليأس والاستسلام، لينتابك ذاك الذهول من الإصرار والتشبث بالحلم إلى النهاية، بل ستزداد إعجابا حينما تدرك أن المجموعة التي بين أيدينا، وكما أفصح لي كاتبها، قد حررها في حوالي عقد من الزمن، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الدكتور محسن عتيق خان قد نقش هذه النصوص كلمة كلمة، وسطرا سطرا، وبين هذا وذاك عالم من التأني والإيمان بالقضية.

وكأي كتاب يضمر رحلة ماتعة توحي بشيء غير معتاد، نضطر للعودة إلى العنوان كي نفكك بعضه عن بعض، ثم نقوم بإعادة التركيب لنرسم أولى التصورات والتوقعات التي تضمها المجموعة القصصية بين ثناياها، فالعنوان الذي يتكون من كلمتين: "مسلوب الكرامة" يجعلني – وأظن أن العديد من القراء سيشاطرونني التوجه- أقرر النظر في الشق الثاني منه قبل التساؤل عن طبيعة السلب وعلاقته بالمسلوب.

فما الكرامة بداية؟

ستدلنا القواميس بكل بساطة على أنها تعني في اللغة الشرف والعزة والفضائل، وحين ربطها بالإنسان نستشف منها أنها تعني إتصاف هذا الإنسان بما يليق به من الشرف والفضائل التي تجعله محترما ذا قيمة ومحلا

للتقدير والاعتبار، فكل الحقوق المخولة للبشر بمقتضى الشرائع السماوية والقوانين الوضعية إنما تصب في نهاية المطاف إلى تحقيق هدف أسمى ونبيل ألا وهو حفظ الكرامة الإنسانية، لذا نجد الخطاب القرآني البديع يذكرنا دوما بأن الإنسان خلق في أحسن تقويم ونال شرف التكريم الإلهي، كما نجد الفلسفات الإنسانية تربط دوما هذه الكرامة بإعجازية الإنسان وتمتعه بالحرية التي لا يمكن الفصل بينها وبين الكرامة في شيء.

فهل يمكن أن نتصور الكرامة بكل تلك الحمولة الإيجابية أن تتعرض للإمتهان؟

هذه هي القضية التي، ربما، يسعى الدكتور محسن لأن يجعلنا نقف إزاءها بنوع من اليقظة والتأمل، فربط الكرامة بالسلب لا يعني أكثر مما يشير إليه فقه علم النفس الإجتماعي بكونه **"هدر للإنسان"** أي التنكر لإنسانيته وعدم الإعتراف بقيمته وحصانته وكيانه وحقوقه.

نجزم دوما بان الكاتب ابن بيئته، والكاتب في مجموعته القصصية حينما يصورنا الحياة الإجتماعية بدولة الهند ببعض القضايا والتفاصيل، سيجعلنا نشد الرحال إلى تلك البقعة من الأرض في هذا العالم، غير أن الاستمرار في سبر أغور القصص، القصة تلو الأخرى، سيفاجئنا بما يمكن أن نصبغه **بعالمية قصة** الدكتور محسن عتيق خان، فكل المآسي

والمحن، وكل قطوف الخير المتناثرة على طول السبيل بطابعها الهندي قد نجد لها مثيلا في أي مكان وفي أي زمان، لكن حينما تطغى هالة القسوة والمعاناة في النص الأدبي لكاتبنا، سنحس، ولا شك، أنها مرايا تعكس هواننا أينما كنا على بسيطة المعمور، فتتجلى لنا بالتالي وضعيتنا الخاصة في كثيرة من جوانبها كما كتبها الكاتب من زاويته الخاصة.

فمن التصوير الجميل لمسألة مستعصية تتمثل في عُقْدة الحدود بين الشعوب، والتي عالجها في قضية رجل وامرأة بما يعنيانه من نصف ونصف آخر لا يمكن للحياة أن تتم دون الوصل والتواصل، إلى الصدع بما يزعزع راحة الوجود البشري، كتعرية الواقع الذي ينهش كرامة الإنسان بالتسول المفروض بحثا عن لقمة العيش أو الجري ورائها بكامل الذل والمهانة، ثم الإحتماء بالجسور من نوائب الدهور، وكذا مصارعة الجزع والعبودية والاستبداد، مرورا بهضم حق الطفولة وإعانة الظلمة والمجرمين على الإفلات من العقاب، وتفشي الوساطات والمحسوبية التي تدفن كل الكفاءات وتشجع على الفساد، وصولا إلى النقطة التي تفيض كأس كل المصائب وهي موضوع الميز الديني والكراهية والتطرف.

لقد فتح لنا الدكتور محسن عتيق خان في مجموعته الماتعة والصادمة في الآن ذاته، وعلى مد نصوص متتالية، مسألة الميز الديني الذي تعانيه الأقلية المسلمة بمجتمعه، وهي ولا شك قضية نفس الأقلية في مختلف بلدان العالم، بل إنها مسألة كل الأقليات التي حاول كابتنا الدفاع عنها حينما يفصح أن الدفاع عن أقلية معينة في بلد معين لا ننتمي إليه، يفرض تباعا احترام الأقلية التي تجمعنا في نفس البلد، هذه المعضلة التي لمح إلى أن جذور إنهائها تنطلق أساسا مع الناشئة قبل الكبار، فالحياة مشتركة كأنها ذلك القارب الذي يحملنا، فلنا أن نجعله قارب حب أو قارب كراهية، لأن من سيدفع الثمن في نهاية المطاف نحن جميعنا.

بالرغم من كل القساوة التي قد تبديها لنا المجموعة القصصية في تيماتها المتنوعة، إلا أن كاتبنا الفاضل لم يتوانى عن نثر بذور الخير، ورسم لوحات التفاؤل والعرفان بين نصوصها، فقد تناولت أيضا فضائل التعاون والمساعدة والرحمة وتقدير الآخر، كما لم يفته التطرق إلى سمة "الجب العذري النقي" الذي بتنا نفتقده في العصر الحديث، وكذا الحث على التمسك بالعلم والتعلم لأنه في نهاية المطاف يظل السلاح الفعال لكل العراقيل التي قد نصادفها في مسيرة الحياة.

ولا يمكننا الختم دون الإشارة إلى أن الأستاذ محسن عتيق خان قد بذل جهدا كبيرا كي يوصل لنا تلك الصورة المتمناة للهند، وهي الصورة المثال التي تتبوأ فيها الصدارة في التنوع والتعدد والإيخاء والإعتراف بكل مكوناته التي صنعت عراقته وأصالته منذ قدم العصور وإلى اليوم، فالتاريخ كل لا يتجزأ، ولإنسان كان ولا يزال سيد هذه الأجزاء وأهمها. وإذا ما أعدنا وكررنا قراءة هذه المجموعة الفريدة بتجربتها ورسالتها، سنقول مع الكاتب أننا نتمنى العالم بأسره كدولة الهند التي نظر إليها من زاوية الإبداع والأدب الراقي..

فدعونا نقرأ ونسبر الأغوار...ثم نكرر القراءة!

القاص والروائي المغربي: عمر الموريف

كلمة الكاتب

كنت دائماً مغرماً بالقصص القصيرة، كثير الإعجاب بها، وكبير الاهتمام بكتبها منذ أن بدأت أعرف القراءة، فعندما وصلت إلى السنة الخامسة من المرحلة الابتدائية قرأت معظم قصص الأطفال الموجودة في مكتبة سكن الطلاب في المعهد العالي بندوة العلماء بما فيها بعض قصص أديب الأطفال الشهير باللغة الأردية مائيل الخيرآبادي، فأعجبتني كثيراً لدرجة أنها عشعشت في ذهني، فأعدت قراءتها مراراً وتكراراً. وخلال هذه الحقبة راودني الأمل في كتابة القصة وقرض الشعر، فبدأت أبذل الجهد الكافي في قول الشعر أولاً وتعلمت بعض مبادئه من الأستاذ القارئ هداية الله رحمه الله.

ولكن سوء حظي أوقعني في مأزق شديد لأن أستاذاً آخر رأى بعض أبياتي الشعرية التي كنت قد كتبتها في كراستي، فضجرني وضرب على راحتي يدي بمساحة السبورة عدة مرات حتى احمرتا، فانصرفت عن قول الشعر، وفي نفس الوقت وجدت في نفسي رغبة في كتابة قصة مستلهمة من ذكرياتي في المدرسة السابقة، فبدأت أكتب على الصفحات الفارغة في كتاب العلوم فطالت وطالت حتى كادت أن تكون

رواية صغيرة، وكنت على وشك وضع اللمسات الأخيرة على هذه القصة إذ زارني يوماً أبي أثناء إقامتي في سكن الطلاب، وخلال تفحصه لحقيبتي وما احتوته من كتب وكراريس، اكتشف هذه الباكورة وظناً أنني أختار سبيلا غير ملائم للدراسة مزقها تمزيقا لم يعد من الممكن رقع قطعها ورماها خارج الشباك، ولا شك في أنه كان مخلصا لابنه فيما فعل.

وهكذا لاقيت ليس التثبيط وعدم التشجيع فقط بل العقاب أيضا قبل أن أغامر في هذا المضمار، فامتنعت عن كتابة القصة، ولكنني لم أتمالك أن أكبح جماح ما جادت به علي القريحة من أبيات فبدأت أقرض الأبيات الغزلية من حين لآخر. أما رغبتي في قراءة القصص فازدادت بمرور الأيام وانصرفت إلى دراسة ما ابدعه من قصص مشاهير الأدب الأردوي أمثال بريم تشاند، وسعادت حسن منتو، وابن صفي، وغيرهم، بالإضافة إلى قراءة معظم الروايات التاريخية لصادق حسين السردنوي، وعناية الله ألتمس وغيرهما، وعندما تعلمت العربية وتمكنت من القراءة فيها قرأت قصص كامل كيلاني بأكملها تقريبا، وكتب محمد عطية الإبراشي، وتأثرت بهما كثيرا، وبعدما بدأ يتطور ذوقي تدريجياً واجتاز مراحل الدارسة مرحلة بعد مرحلة، أكببت على الأدب العربي، ودرست النظرات والعبرات وكل ما وصلت إليه يدي من آثار لمصطفى لطفي

المنفلوطي دراسة متأنية وكذلك كتب طه حسين، وعبد الرحمن رأفت باشا، ومحمد حسين هيكل، ومحمود تيمور، ونجيب محفوظ، كما بدأت أقرأ القصص بالإنجليزية وبصفة خاصة قصص راسكين بوند وغيره من أدباء الأطفال.

لقد كنت قد تبت من كتابة القصة بعد تجربتي الأولى المريرة بها، وكنت حتى شغلت عن قرض الشعر، ولكن عندما تخرجت في ندوة العلماء بلكناؤ، وسافرت إلى مدينة دلهي لمواصلة الدراسة العليا، سكنت هنا في مبنى كان معظم سكانه من الطلاب أو من الذين جاؤوا في البحث عما يقتاتون به، وبين هؤلاء العاطلين مهندس من لكناؤ، إذ كان يخرج كل صباح في البحث عن وظيفة ولكن يعود خائباً في المساء، وعندما انتقل إلى غرفتي ليشاركني الغرفة، قصّ علي كثيرا مما عانى به من المشاكل في سبيل البحث عن وظيفة يسد بها رمقه، وكان خالي الوفاض لم يعد لديه ما ينفقه، فكانت لمعاناته في قلبي أثر عميق لا مثيل له، وشعرت كأن قريحة كتابة القصة القصيرة تستيقظ من جديد، فكتبت قصة قصيرة بعنوان "جوكار" في عام 2005 باللغة الأردية وحاولت أن أتناول فيه قضية البطالة. وخلال دراسة البكالوريوس في جامعة جواهرلال نهرو، نيودلهي، تأثرت كثيراً بما كان يجري في إقليم كشمير من قتل ودمار

ومناوشات مزيفة فكتبت قصة قصيرة بعنوان "الجحيم في النعيم" باللغة العربية، ثم كتبت قصة بعنوان "شعلة متململة" إذ انفعلت كثيرا بمصرع ابنة عمتي في حادث حريق، ولكن هاتين القصتين لم تستوفيا شروط القصة فلم يتم نشرهما بعد، ثم كتبت قصة باللغة الإنجليزية بعنوان "Hope At The Little Hill" في عام 2007، تناولت فيها قضية خط السيطرة الفاصل بين الهند وباكستان وأثرها على عامة الناس في المنطقة. وقد تم نشرها في المجلة السنوية للشركة التي كنت أعمل فيها في ذلك الحين، فأبدى القرّاء إعجابهم بها، وقبل سنتين نشرتها على موقع للقصة القصيرة فأعجب بها العديد من القرّاء كثيراً حتى بلغ عدد قراءها نحو سبعة عشر ألفا، وتم نقلها إلى العربية بعنوان "أمل على التل الصغير"، وأدرجتها في بداية هذه المجموعة القصصية.

لم يتأت لي الاستمرار في حلبة الإبداع القصصي أولاً جرّاء وظيفتي وثانياً بما أني كنت منشغلا بتحضيري لرسالة الدكتوراه وبعد أن قدّمت رسالتي لنيل درجة الدكتوراه إلى الجامعة الملية الإسلامية بنيودلهي حول "إسهامات غسان كنفاني في أدب المقاومة الفلسطينية" في نهاية عام 2015، سُنحت لي فرصة إنشاء مجلة "أقلام الهند" بالتعاون مع بعض أصدقائي في السنة التالية ما عمل كحافز أيقظ في نفسي قريحة كتابة القصة

من جديد، فبدأت أكتبها مستعيناً بمشاهداتي، وتجاربي الخاصة، وحاولت في هذه القصص أن أقدّم لقراء اللغة العربية صورة المجتمع الهندي وبصفة خاصة المجتمع الإسلامي الهندي في أصدق صوره، فالمجتمع الإسلامي في الهند يواجه كأقلية ضروباً شتى من التحديات والصعوبات، بما فيها الاضطهادات التي يتعرضون لها بشكل يومي، وخطر تطرف الهندك الدائم الذي يزداد كل يوم قسوة ويهدد وجودهم ومستقبل أجيالهم، وكذلك قضية تفشي الجهل وانتشار ظاهرة البطالة وعدم الاهتمام بالواجبات الدينية والدنيوية. فلا تجد في هذه القصص إلا تصوير الحياة الهندية تصويراً واقعياً ببعض حقائقها وتفاصيلها، وشخصيات من صميم الأفراد العاديين، والواقع اليومي المعاش في أبسط صوره، وكل ذلك من خلال التعبيرات المتواضعة، والكلمات البسيطة، وبعيدا عن الزخارف البيانية.

وأقدم كلمة الشكر للأستاذ د. محمود حافظ عبد الرب مرزا الذي – بناء على طلبي– قام بمراجعة مادة الكتاب، وشرفني بآرائه القيمة، وحضني وساعدني على انتقاء أحسن ما كتبته من القصص القصيرة، وكذلك أقدم باقة الشكر والتقدير للأستاذة .د. راضية بنت عريبة التي شرفتني بقراءة هذه المجموعة المتواضعة وكتبت نقدا بليغا عنها. وأشكر

الأخ د. مخلص الرحمن وكذلك الأخ د. محمد علي أختر، والأخ د. محمد عظمت الله، والأخ د. محمد ريحان الندوي، والأخ د. أياز أحمد فوجدتهم دائما مستعدين لقراءة قصصي، والإدلاء بآرائهم المفيدة قبل أن يتم نشرها.

وأتقدم بخالص الشكر والتقدير والامتنان للأستاذ عمر الموريف لتقديمه القيم للمجموعة، فقد كتب التقديم خلال فترة وجيزة وهذا دليل على كرمه وإخلاصه للأصدقاء، وقدرته الفائقة في الكتابة، ومهارته المتميزة في الفن، وتفانيه في سبيل الأدب. وهذا التقديم سيضيف إلى قيمة هذه المجموعة وسيساعد القارئ في فهم هذه القصص المتواضعة إن شاء الله.

ومن سعادة كاتب هذه السطور أن تحظى هذه المجموعة بالنشر من جانب المكتبة العربية للنشر والتوزيع المؤقرة فكل الشكر للمكتبة على هذه العناية الخاصة والاهتمام بهذا العمل المتواضع، وهذا يزيدني ثقة بنفسي ويشجعني على أن أواصل على الدرب نفسه وأضاعف جهودي كي أحسن مستواي أكثر بإذن الله....

وأخيراً، لا آخراً، أتمنى أن تنال هذه المجموعة إعجاب القرّاء وتحوز على رضاهم وتوفير المتعة لهم بل أيضا في تزويدهم بالمعلومات عن بعض ملامح الثقافة الهندية، وأحوال المسلمين الهنود.

ولله الحمد أولاً وآخراً.

د. محسن عتيق خان

أمل على التل الصغير

اليوم، حين تسلقت عائشة ذلك التل الصغير، تساقطت دمعتان من محجريها، منحدرتين على خديها الحمراوين إذ لحظت زوجها الحبيب يلوح بيديه من وراء الحدود، واقفا على هضبة القرية. اعتادت هذا اللقاء من بعد، فكانت تتسلق التل الصغير كل يوم لتكتحل عيناها برؤيته من بعيد. ولكنها اليوم كانت على غير عادتها متوترة ومهمومة... لم يبق لديها الآن أي أمل في لقاءه بعد ما لاقى طلبها رفضا من جديد. نظرت إلى زوجها وانهمرت الدموع من عينيها... باءت كل جهودها بالخيبة رغم زياراتها المكثفة للدوائر الرسمية للحصول على رخصة تتيح لها زيارة زوجها في قرية مجاورة... تقع في بلد آخر عبر الحدود. لمحته هذه المرة يهز منديله وظلت تحدق إليه غارقة في الذكريات شيئا فشيئا... ذكريات أيام شبابها وأوائل حياتها الزوجية بدأت تزاحم أفكارها...

كان الصيف معتدلا في وادي كشمير حين تزوجت من شاب وسيم متواضع من القرية نفسها، كان عاد قبل أيام إلى القرية بعد تخرجه من إحدى الجامعات الشهيرة في دلهي. كان أبوه فخورا بابنه وبدا في غاية السعادة والفرح في حفلة الزواج. في حين كان القلق يساور الشاب لأن أبوه لم يسأله عن رأيه في الزواج ورغم ذلك لم يعارض أباه بل امتثل له بدون أن ينبس ببنت شفة.

أخيلة مشتتة كانت تتزاحم في رأسها مثل تزاحم مناظر فيلم متناثرة. تذكرت صديقاتها اللائي كن يجهزنها للزفاف، يداعبنها بالمزاح والقرص، فتبتسم هي حيناً، وترمق إليهن حينا آخر، تجتاحها الرغبة في أن تكيل لهن ببضائعهن. كانت من أجمل فتيات القرية وقد أضفى فستان الزفاف عليها بهاء وزادها حسناً وجمالا فبدت كأنها ملاك بريء هبط للتو على الأرض من السماء. كانت فتاة في منتصف المراهقة، تجهل حقيقة الزواج، وإن كانت لديها بعض المشاعر والعواطف والأفكار تجاه الشاب الأجنبي الذي ستزف إليه طوال حياتها. سبق أن رأته، بل لعبت معه عدة مرات في صباها قبل أن يرحل إلى دلهي بعد بلوغ المراهقة للدراسة في مدرسة قبل التحاقه

بالجامعة. فلم يُتح لها بعد ذلك أن تراه إلا في بعض المناسبات. لم تحمل أي عواطف تجاهه أو تجاه أي شاب آخر في القرية ولكن بعد أن تمت الخطوبة بينهما طفقت عاطفة ما تنمو في قلبها وسرعان ما احتل هو عرش قلبها وأصبح فارس أحلامها. صارت تكنّ له حبا جما وتشعر بقوة عاطفية تشدها إليه إلا أنه آلمها أن كل ما تم من أمر الخطوبة كان بدون رضاه. وتم الزواج حال ما ظلت قلقة وخائفة من أنها ستواجه نقمته وعدم رضاه.

تعانق عقربا الساعة على نقطة 12 في الليل حين فارقتها فتيات القرية ونسوتها ليتركنها وحيدة في غرفة بهية مزينة لتلك المناسبة السعيدة، تفوح عطراً وبهاء. بدأت تنتظر قدوم فارس أحلامها مترقبة لا تدري ما الذي سيحصل، وكيف تستقبله، وكيف يعاملها. لحظات الانتظار القاسية أوشكت على الانتهاء إذ سمعت جلبة وأصوات نسوة ممازحات على عتبة الباب. ها هو يظهر في إطار الباب، يحييها بـ"السلام عليكم" بصوت خافت متردد ويقترب إليها، ويستأذنها بكل أدب وتودد: "ممكن أجلس على السرير؟" هزت رأسها موافقة، فجلس بجنبها، وجعل يغدق عليها ما كنته

جوانحه لها من عواطف الحب المشبوبة، وما أحس به تجاهها من مشاعر المودة والهوى الحميمة، يبوح لها بأنها الفتاة الوحيدة التي أحبها منذ صباه. طوال شهر كامل، لم يفارق بعضهما الآخر، وكانا في قمة الحب والسعادة، يطيران مرفرفين في فضاء العاطفة والبهجة. رافقها إلى بحيرة دال الشهيرة عدة مرات، وكانا يبحران طوال الليل فوق مياهها الزرقاء المتلألئة بنور البدر الكامل، يتناغمان بالغرام ويتغنيان بالهيام. كان فنانا رائعا يجيد الرسم. قدّم لها بعض الصور التي كان رسمها أيام دراسته، ورسم لها أيضا صورا خلابة عديدة على لوحة رسمه. كانت حياتهما مفعمة بالفرح، غمرتهما المتعة والحب والمرح، وإذا بمفاجأة تعسة باعدت بينهما وحولت حياتهما إلى مأساة...

مالت الشمس إلى وكنتها في الغرب بأشعتها الباهتة تتدرج إلى الخفوت، إيذاناً بعودة الناس من المزارع والبساتين والمراعي إلى منازلهم. كانت تنتظره ذلك اليوم بلهفة أبلغ من العادة، وعيونها على الباب. فسيغيب اليوم للمرة الأولى منذ زواجهما لليلة كاملة لكي يشارك في حفلة زواج بعض أقربائه في قرية مجاورة. عاد إلى البيت من

بساتين التفاح، فوجد شقيقه الأصغر ينتظره مستعدا للمغادرة لحفلة الزواج. لم ترده عن مغادرتها، لأنه كان عليه أن يذهب. إنها حفلة زفاف ابن عمته الذي لم يلقه منذ زواجه. تجهز وخرج مستكرهاً وغادر مع شقيقه الأصغر وكانت الشمس قد عادت إلى قرابها مخلفة حمرة الشفق. ولبثت هي في البيت مغلوبة على أمرها، وجلًا قلبها من أمر ليست تدركه. بلغت الليلة منتصفها، ولم تذق عيناها الكرى، وظلت تتقلب على الفراش متفكرة به. وإذا بأصوات انفجارات ورصاصات متعالية أصمّت آذانها، وأفزعتها فزعا جعلها تشعر بحاجة ملحة إلى ملجأ صدره الجلمود. أفزعت الانفجارات والدي زوجها كذلك، فهرعا إليها مرتجفين مذعورين، وجلسا على السرير بجنبها. استبدّ بهما الخوف لعلمهما بأن التوتر بشأن تقسيم الحدود، القائم بين الدولتين المتاخمتين اللتين حصلتا على استقلالهما قبل قليل، قد استحال إلى وضع حرب شاملة.

دارت رحى الحرب لعدة أيام، لم تعثر هي خلالها على أي أثر له. وذات يوم عند الظهيرة، وضعت الحرب أوزراها، فتوقفت أصوات الانفجارات وانقطع أزيز الرصاصات. ونشر المذياع أن الدولتين قد

توصلتا إلى اتفاق، من شأنه إيقاف الحرب، ورسم خط تحكّم على طول الحدود المشتركة بينهما. طار لبهم حين عرفوا بأن خط التحكم يمر بين القرية التي تعيش فيها والقرية التي كان ذهب إليها لحضور حفلة زواج قريب له. كانت قوات الحدود من كلتا الدولتين قد احتلت مواقفها من الحدود على طول خط التحكم، تحرسها بحذر بحيث لم يمكن لأي كان أن يعبر الخط من كلا الجانبين. خط بين الدولتين قد فرّق بينهما وباعد بين القريتين المجاورتين بعداً شاسعاً. حاول مرات أن ينسل إلى قريته عبر الخط من بين الأسلاك الشائكة، ولكن قُبض عليه في كل مرة وزُج به في السجن ليذوق عاقبة تهوره شهوراً.

ولم يبق لهما الآن إلا أن يلتقيا لقاء بُعد يحول بينهما الخط الفارق. كانت تصعد كل صباح ذلك التل الصغير وتلوح له بيدها إبقاء على أملها وحفاظا على أمانيها. دميت قدماها بزياراتها المتكررة الكثيرة للدوائر الرسمية وكانت تقدمت بطلبات عديدة للحصول على رخصة تتيح لها زيارته في قرية عبر الحدود ولكن باء كل طلبها بالرفض. مرت الأيام ببطء كأنها أيضا أثقلها فراق الحبيب.

وازدادت الأيام ثقلا وبطئا من انتقال أبويها وأبوي زوجها واحداً تلو الآخر إلى جوار الله خلال السنوات الماضية، والذين كانوا من البداية معها يواسونها ويشاركون همها ويخففون عنها ألمها، فبقيت هي الآن وحيدة، تتجرع مرارة الفراق وثقل الانتظار، تناضل وتجاهد بمفردها ولكن ظلت بغيتها بعيدة المنال.

أعادتها من رحلة ذكرياتها ضحكات فتيات أتين إلى التل لرعي الأغنام. كن يعتبرنها مجنونة فريدة من نوعها، بما رأينه من كآبة وجهها الحزين، وبما سمعنه من قصة حبها الكئيب. آن لها أن تعود، فإن سحب الصباح أخذت تنقشع عن السماء، وبدأت الشمس ترتفع من الشرق تنشر ضوئها الحار على وجودها. هزت له يديها لمرة أخيرة متغاضية عن نظرات الفتيات قبل أن ترجع إلى بيتها. دخلت الغرفة التي حملت ذكرياتها السعيدة بعد فترة طويلة، ولم تتمالك نفسها وأخذت تجهش بالبكاء. لم يبق لديها أي أمل في لقائه. نظرت إلى صورها الجميلة القديمة المعلقة بجدار الغرفة، وذاب قلبها المتنهد نشيجا. قد مرّ خمسون عاما طوال منذ أن فرقت الحرب بينهما.

وها قد ذبل جمالها، وشحب وجهها وعلته تجعيدات تكمن فيها شجون عمر طويل. وهزلت يداها وضمرت رجلاها بعد أن كانتا غضة طرية لحما ودما. ظلت تمسك بخيط الأمل طيلة الخمسين عاما، ولكن اليوم، انكسر ذلك الخيط وباتت بلا أمل، ميئوسة منها....

(2007)

بين صفوف السيارات

كان رامو من الناشئين الذين يصبحون و يمسون على جانب الشارع عند تلك الإشارة بالقرب من معبد كالكا الفخم،في العاصمة الهندية، فبعضهم يجرون للتسول إلى السيارات التي تقف كلما تتحول الإشارة إلى الضوء الأحمر من حين لحين، و بعضهم يسرعون لبيع ما يحملون بين أيديهم من الكتب السوقية ذات الأغلفة الخلابة، وباقات الأزهار المائلة إلى الذبول، وأشكال الحيوانات والطيور المنفوخة و اللعبات و الدمى للصغار.

عندما فتح رامو عينيه و بدأ يفهم ما يجري حوله، رأى أمه تحمله في أيديها القذرة و تتسول أمام معبد كالكا الفخم عند منحنى الشارع فتتعرض للنهر والرد من الزوار أحيانا والرفق و اللين أحيانا أخرى، فبعضهم يجود بروبية أو نصفها. وفي بعض الأيام، كانت تذهب من باب إلى باب متسولة و هكذا كانت تسد رمقها و تطعم نفسها و طفلها. إنها كانت تسكن تحت جسر المعبر عند نفس المعبد مع بعض الشحاذين و المتسولات.

نشأ رامو هكذا في حضن أمه، و عندما تعلم المشي والحركة، بدأ يتسول هو أيضا في الشارع، و كان لم يلق رجلا إلا متسولا و يلح في السؤال، و أكثر ما أدى إلحاحه هذا إلى اضطرار الناس أن ينهروه و ربما كان يفوز بروبية أو نصفها.

هكذا كانت تجري أيامه، إذ طلع يوماً عليه رجل ففعل به كالعادة، ولكن ذلك الرجل لم ينهره و لم يعطه روبية بل رفق به و دعاه إليه و أدناه منه ثم عرض عليه أن يبيع له الصحف عند تلك الإشارة و يقسما الربح بينهما. ففي بداية الأمر رفض هذا العرض و لكن سرعان ما قبل، فبدأ يبيع في الشارع تلك المجلات الفاتنة التي تعرض هذه الممثلة أو تلك من بوليوود على أغلفتها في ملابس قصيرة، و بعضها تحمل بعض ممثلات هوليوود الرشيقات في ملابس تكشف أكثر مما تستر من أجسامهن البيضاء. أحب رامو بيع هذه المجلات و الصحف فلا يواجه نهرا و غيظا و لا ردا خشنا بل يساوم أولئك الذين يجلسون في السيارات الغالية في ملابس فاخرة، ولكنه كان لا يتمكن من بيع إلا بضع مجلات رغم أنه كان يجري بين هذا الشارع و ذلك عند الإشارة طول النهار، كان يهرع إلى الزبائن الجالسين في السيارات في وسط

الشارع كلما تتحول الإشارة إلى الأحمر، و كم من مرة ألقى نفسه في خطر لتحول الإشارة الحمراء إلى الخضراء وهو في وسط الطريق و بين صفوف السيارات ولم ينته بعد من المساومة مع زبون في سيارة، أو كاد أن يقنعه، أو كان على وشك البيع، وهؤلاء الناس في السيارات يساومون كثيرا.

إنه كان عذب الصوت، و لين الحديث في المساومة، و قد وقعت طريقة حديثه وقعا حسنا في قلب ذلك الرجل الذي كان يمر بهذه الإشارة في سيارة سوداء فخمة كل يوم في تمام الساعة التاسعة و رآه مرارا يجري بين صفوف السيارات، و ساوم معه عدة مرات، فأراد أن يخرجه من هذه المعضلة فدعاه يوما إلى بيته وقدّم له الطعام الشهي الذي لم يأكله رامو طوال حياته، والملابس و اقترح عليه أن يفتح محلاً صغيراً للشاي أمام مكتبه في جورجاؤن التي هي معروفة لمكاتب الشركات، و أعطاه بعض المال، ليشتري علب السيجارة و البيري و حزم التبغ، و مستلزمات الشاي. ففعل رامو كما أشار ذلك الرجل الشريف و اشترى بالإضافة إلى هذه الأشياء كلها بوليثين و جعل به ترتيبا مؤقتا للدكان أمام ذلك المبنى الفخم ذي الطوابق المتعددة. و

لكن منعه حراس المبنى من أن يجلس أمام مبنى المكتب، فبرح إلى اليمين و جعل لنفسه مكانا من أراضي مبنى قيد الإنشاء، و بدأ يبيع التبغ المعبأ في الحقائب البلاستيكية الصغيرة، و الشاي و كذلك بعض الوجبات التي يتناوله الناس ترفيها في الوقفات خلال العمل. بدأ الموظفون في المكتب يأوون إلى دكانه خلال فترات الاستراحة، و جعل يكسب المال الحلال بعرق جبينه و ثبت هذا رابحا و نبيلا، و رغم أنه كان يواجه بعض المشكلات فكان هناك بعض الموظفين في المكتب الذين لا يدفعون القيمة نقدا، بل يقولون له "سندفع غدا" و لكن لم يدفعوا قط.

ولكن لم يمض على ذلك أيام حتى أنكر ذلك صاحب الفندق الذي يقع بعيدا من هنا، و طلب منه أن يدفع له مبلغا معينا في كل شهر و إلا فلا يدعه أن يجلس هنا و سيشكو أمره إلى البلدية و له علاقة وطيدة مع موظفي البلدية و الشرطة في تلك المنطقة لأنه هو بنفسه يدفع بعض المال إلى الشرطة.

كان راموا لا يتوقع مثل هذا الطلب من أحد، فلم يرض أن يعطي من كسبه القليل من لا يعرفه و من لا صلة له به، فحدث ما لم يكن في الحسبان، فذات يوم، اقتحم دكانه موظفوا البلدية في صحبة الشرطة، و صادروا كل ما كان لديه من البضائع والنقود و قد صفعه أحدهم، و كاد أن يضربه شرطي بهراوته الغليظ لو لا منعه الآخر فاكتفى بالنهر والزجر فقط.

بعد ذهابهم، بكي رامو طويلا بكاء لم يبك مثله قط، فلم يجد نفسه مخذولا قط كما وجده اليوم كئيبا حزينا، من له أن يشاركه في حزنه و ألمه و من له أن يهدئه، فلم ير وجه أبيه في حياته قط، و لم يدر من كان أبوه، وقد ماتت المؤنسة الوحيدة أمه منذ أعوام في حادث اصطدام السيارات، وتذكر أصدقاءه الذين كانوا يشاجرونه لأمور تافهة ولكن كانوا يتسولون معه متمازحين بعضهم البعض في ذلك الشارع، و في هذه الحالة الكئيبة، لم يجد سبيلا إلا إلى ذلك الطريق الذي يهدي إلى تلك الإشارة التي تركها منذ أيام، ولم يجد عملا إلا أن يلجأ إلى التسول مرة أخرى.

(2011)

مجتمع مسموم

يتدفق نهر غومتي بخط مستقيم ثم يطوف قرية إسولي نصف طواف و يستقيم مرة ثانية و هكذا يعطي صورة هلال لدى هذه القرية الكبيرة التي تعرض ضفتها مشهداً رائعا بحقولها المترامية و أشجارها الطويلة. و تجد من هنا و هناك بعض أكواخ من القش في ظل بعض أشجار الأنبج للفلاحين الذين يلجؤون إليها في الأيام التي يشتد فيها الحر و تهب اللفحات التي تلسع الوجوه مثل العقارب، و يبيتون فيها بعض الليالي الهالكة عندما لا يكفي المطر و يتطلب سقاية الحقول بماء النهر وقتا طويلا.

و من بين هذه الأكواخ كان كوخا صغيرا لـ"أخلاق" الذي كان ابنا وحيدا لأبويه العجوزين، و كان هذا المثلث يشكل أسرة مسلمة وحيدة في هذه القرية، كان الأب من أشجع الناس في المنطة في شبابه، و امتلك هذه القرية و بعض القرى المجاورة في زمان و لكن عندما حصلت الهند على استقلالها و قامت الحكومة الهندية بإلغاء النظام الإقطاعي، فقد جميع أراضيها إلا قطعة صغيرة من الأرض على ضفة

النهر و لم يستطع أن يحصل على المزيد رغم طوافه للمحكمة لسنوات طويلة حتى استيأس وكف عن ذلك بسبب عمره الذي كان يزيد كل يوم في ضعفه.

كان الشيخ لم يزل محترما في القرية و مقبولا لدى الشيوخ الذين كانوا قد رأوا زمان امتلاكه للقرية فكان لا يزال يترأس الجماعة لحل الشجارات الإرثية والأسرية في القرية و في بعض الأحيان يدعى لذلك في القرى المجاورة. ولكن عددا من الشبان بدأوا يحقدون عليه و يبغضونه منذ أن نجح "رام برساد" في انتخابات الرئاسة للقرية، فقد كان عضوا لحزب هندوسي متطرف و ينفر من المسلمين نفورا لا حد له، فيجد هذه الأسرة الوحيدة في القرية كأنها كائن أجنبي لا بد من طرده، و كلما يرى القطعة الأرضية الصغيرة على الضفة يزيد حقده و بغضه للأسرة، و في هذه المرة اختط خطوة كبيرة ليلحق الضرر بالأسرة، و هذه الخطوة الشنيعة لم يخطر قط ببال أحد من رجال القرية، و لم يجترأ أحد على أن يختار هذا السبيل في القرية ضد العدو اللدود فضلا عن هذه الأسرة الكريمة التي لم تضر أحدا قط، وكانت دائما تشارك الناس في سرائهم وضرائهم، فعندما أتت أشجار الأنبج

بثمارها، وبدت سنابل القمح تتمايل بعد نضجها، قرّر "رام برساد" أن ينفذ خطته، ففي ظهيرة حارة عندما أوى الناس إلى بيوتهم ليقوا أنفهسم من شدة الحر والهواء اللافح، تسلل من القرية مختفيا عن أنظار الناس، ووصل إلى الضفة. ألقى نظرة دقيقة على قطعة الأرض التابعة لأخلاق و أشجار الأنبج التي كانت تشكل حديقة صغيرة في إحدى زواية القطعة، أشعل سيجاراته، ثم ألقى نظرة عابرة أخرى على القطعة، وأخذ عود كبريته المشتعل في يده بشدة ثم رمى به إلى أبعد ما يستطع في وسط حقول أخلاق، استمر يحدق في المكان الذي سقط فيه العود حتى رأى الدخان ينبعث من هنا، فتنفس طويلا ثم ألقى بنفسه في النهر و بدأ يسبح إلى الضفة الأخرى.

عندما عاد رام برساد في المساء وجد أن عمله الذي حوّل حقول القمح و حديقة الأبنج إلى الرماد قد أصبح حديث القرية بدون أن يعرف أحد من فعل ذلك. وصل إلى بيته فرأى أباه يحاول أن يخرج غرارة من غرائر القمح المدخرة للبيع، فسأله لماذا يفعل ذلك؟، فأدهشه رده، فهو يريد أن يهدي هذه الغرارة إلى أبي "أخلاق"، فقد ابتلعت الحريق حقوله و لم يترك له شيئا. فاشتعل غضبا و منعه من أن

يفعل ذلك، و لكن أباه كان يعرف حقده الشديد على المسلمين فبدأ يفهمه قائلا: "يا بني الحقد لا ينفع، و هذا الرجل الذي فقد حصاد هذا الموسم في الحريق كان يمتلك هذه القرية فيما مضى من الزمان، و كان حسن الخلق، يراعي حقوق الناس، ويعاملهم معاملة حسنة و لم يظلم أحدا قط و لم يستطع أحد أن يظلم أحدا في أيامه، و هو لا يزال يفصل خصامنا فصل الحق. أنت رئيس القرية الآن، و عليك أن تشارك أناس القرية في سرائهم و ضرائهم". ثم حمل الغرارة على كتفه اليمنى و توجه إلى بيت "أخلاق"، فخرج هو أيضا خلف أبيه رغم أنه كان مشتعلا بالغضب ليتظاهر بأنه يلقى أخلاق و يواسي أبيه.

مضى على حادث الحريق شهور و خلال هذه الأيام اشتد انتماء رام برساد بالحزب السياسي المتطرف و المنظمة المتطرفة التي تشرف على هذا الحزب و تسعى إلى خلق النفور بين عامة الناس ضد المسلمين، و تحاول تأجيج الاضطرابات الطائفية من حين لحين، ففتح فرعا لهذه المنظمة في القرية و دعى شبابها إلى أن ينضموا إليها فزاد عدد الأعضاء يوما بعد يوم، و حتى وجد عددا من الشبان يفكرون مثله، و ينفرون من المسلمين، و يحقدون عليهم مثله إلا عددا قليلا من الشبان الذين

استردوا عضويتهم بعد أن رأوا أن هذه المنظمة منظمة متطرفة غير إنسانية و دون عقلانية، و تدعو إلى اختيار الكذبة في كتابة التاريخ والثقافة، و تسعى إلى خلق الهوة بين المجتمع الهندي على أساس الدين والثقافة والطائفة.

عندما نجح رام برساد في إعداد جماعة من الشبان الذين يتبعونه، اختط خطوة حاسمة للقضاء على هذه الأسرة المسلمة الوحيدة، ففي المساء الذي صعد أخلاق فيه على سطح بيته لرؤية هلال العيد، فتح رام برساد الغرفة المختصة لفرع المنظمة في فناءه، و حضر أصدقائه من الفرع حسب الموعد و ناقش معهم الخطة حتى اتفقوا على كيفية التنفيذ النهائية ثم تفرقوا. إنه خرج أخيرا من الغرفة، و عندما بدأ يغلقها، سمع أباه يسعل بشدة، و يدعوه إليه، فذهب إلى سريره و جلس إليه، فقال له أبوه، "بني، أنا أعرف ما تمكرون، ولكن هذا ليس عدلاً، يجب أن تعلم أن الحقد والنفور والظلم لا يقود إلى الفلاح بل إلى الكارسة و سوف تدرك ذلك، و يجب أن نعيش بسلم و سلام، و هذه المنظمة لا تفعل إلا أن تجعل المجتمع مسموما، و إن نجحت سوف تقود هذه البلاد إلى دار البوار. و ماذا تريد أن تحصل، أنت تحكم هذه القرية

الآن..." لقد قام عن السرير قبل أن يكمل أبوه كلامه و دخل بيته نافضا كتفيه.

كان ذلك صباح يوم العيد، وكان المارون ببيت أخلاق يهنؤونه بمناسبة حلول يوم عيد الفطر السعيد بينما كان هو مشغولا بكنس فناء بيته و فرش بعض أسرة متوقعا عددا من الزائرين بعد صلاة العيد، ثم نقل أباه من داخل البيت إلى فناءه فقد كان قد أصبح صاحب الفراش بسبب مرضه الطويل و شيخوخته و لا يستطيع الآن أن يذهب إلى مصلى العيد في قرية مجاورة. عندما استعد أخلاق كاملا للذهاب إلى الصلاة، أخرج دراجته و أجلس ابنيه الصغيرين عليها، صلى العيد و لقى أصدقاءه من القرى المجاورة، ثم اشترى بعض الحلويات و لحم الضأن حسب العادة قبل أن يعود إلى بيته.

عندما رجع أخلاق من مصلى العيد وجد بعض شبان القرية عند بيته كأنهم يجلسون في مرصاده، ولكنه لم يتوجه إليهم إذ لم يهنئه أحد منهم، ثم وقف عند بابه و بدأ ينزل ابنيه الصغيرين من دراجته، و عندما بدأ يفك أكياس بوليثين من مقود دراجته، خاطبه أحد الشبان سائلا "ماذا تحمل في هذه الأكياس" و قال بصوت عال مشيرا إلى

كيس أسود، "أنت تحمل لحم البقرة، البقرة أمنا، ألا تعلم أننا نعبدها، ثم بدأ يصيح، ها هو يحمل لحم البقرة، و قبل أن يفوه أخلاق بكلمة وقع عليه الشبان وقع الصقر و بدأو يلكمونه و يركلونه بأيديهم و أرجلهم، و يضربونه بالعصا، بدون رحمة، و بدأ عدد الناس يزيد و ينضم إلى هؤلاء الشبان المجنونين بدون أي تحقيق، فهذا كانت مسألة إلههم، البقرة الأم، قيمة حياتها أكثر من قيمة حياة إنسان، ولم يكن هناك من يجترأ على أن يتدخل أو يمنعهم من هذا الظلم، و عندما تركوه كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة بدون أن يجد فرصة لتبرير نفسه من هذه الكذبة. رآه أبوه يموت أمام عينيه و لكن لم يستطع أن يبرح من سريره، فصاح بكل قوته بأسماء بعض أصدقائه من شيوخ القرية، ولكن لم يكن هناك أحد ليساعده، و عندما رأى ابنه الوحيد ميتا، أصيب بصدمة عنيفة كانت نوبة قلبية، و لبى نداء ربه.

(2016)

مسلوب الكرامة

سيدي أنت تبدو رجلا كريما، فتأتي كل يوم في الوقت الذي يقل فيه عدد المارة، تجلس بجانبي لتستأنس بي رغم أنني قذر وتفوح مني رائحة كريهة، وتعطيني عشرة روبيات كلما مررت بي، ليس قط أقل منها، وهي تساوي ما أحصل عليه بعدما أتشحت طوال اليوم. إنك غير الصحفيين الذين لا يلوون إلى أشياء تافهة، ولا تعنيهم معاناة عامة الناس، فتجدهم دائما خلف رجال الأمر والنهي ككلب يحرك ذيله أمام صاحبه، ولكن أجدك ترغب في رجل حقير مثلي، وتحاول أن تستنطقني كأنك تريد أن تستظهر أسراراً مني، وتعرف من أنا رغم أنني رجل حقير منبوذ، أجلس في الطريق متسولا، وأواجه النهر والطرد في كل لحظة.

قد جئتَ اليوم في وقت الفرصة، تعال معي، فلنذهب ونجلس عند أحد أعمدة هذا الجسر، و قد اتخذته مسكنا لي منذ أن نضب الماء في هذا النهر، و آوي إليه كل ليلة، فإمضاء الليل على الأرصفة ليس بخال عن المخاطرة إذ تتسلق السيارات عليها وتدوس الفقراء

النائمين في بعض الأحيان. هذه قاعدة العماد و هي مثل بيت لي، دعني أفرش لك بعض صفحات الصحف لكيى لا يتسخ ثوبك بالتراب، نعم، إجلس الآن بسكينة، و ضع كاميرتك هذه في جانب آخر و اسمتع إلى قصتي.

سيدي، أنا أنتمي إلى قرية تقع على بعد خمس وسبعين كم من هذه المدينة، ومضت سنوات لم أزرها، فهذا المكان تحت جسر "موتي مَحَل" بيتي، وممر المشاة على هذا الجسر مكتبي، أنا أكتسب هناك وأبيت هنا. وفيما أتذكر، كانت قريتي كبيرة بالنسبة للقرى المجاورة الأخرى فكانت تتوزع على أحياء مختلفة، هذا حي البراهمة، و ذلك حي الحلوانيين، و حي آخر للمسلمين، وحي للنصارى، والحي الذي قضيت فيه طفولتي مع أبوي و أعمامي وأبناءهم كان يقع خارج القرية في الجانب الغربي و يصله بالقرية شارع ضيق على جانبيه ماء الترعة. كان هذا الحي يعرف بإسم "جَمَرَهِي" نسبة إلى الطبقة المنبوذة التي كانت تقطنه. كان أهالي هذا الحي لا يملكون بيوتاً، فكانوا يسكنون في أرض يملكها بعض مرازبة القرية، و كان على أهالي هذا الحي أن يعملوا في حقولهم ويتعرضوا لشتمهم وركلهم وكان عليهم أن

يسكتوا ولا يتفوهوا بكلمة إذا حدث مع زوجاتهم أو بناتهم حادث في الحقول فهم أناس لا أرض لهم ولا ملك، ولا شرف لهم ولا عِرض، وكأنهم أبناء الكلاب لا صلة لهم بالإنسان.

كان أبي يستطيع أن يقرأ فيعتبر مثقفا في طبقتنا، وكان رجلا متحمسا من أشد المعجبين بـــ"بابا أمبيدكر صاحب" الذي حاول أن يزيل العار عن طبقتنا المنبوذة في الهند ونجح في الحصول على بعض حقوقهم الأساسية. كان أبي يتوقع مني كثيرا و يعقد بي الآمال إذ كنت ابنه الوحيد، فقرر أن يبذل كل ما في وسعه على تعليمي و تربيتي ولعله أراد أن يجعل مني أمبيدكراً آخرا، فذهب بي إلى مدرسة القرية، وألحقني بها.

أتذكر جيدا كأن ذلك حدث بالأمس فقط يا سيدي، فأيقظتني أمي في الصباح التالي وأعطتني مسواكا من شجرة "النيم"، لعل أول مرة استكت في ذلك اليوم فلم أفكر في تنظيف أسناني قط، ثم وضعت أمامي كسرة من خبز بائت إذ لم يكن لدينا سواه فأكلته بنهم ثم توجهت إلى المدرسة ومعي شنطة أعدت من قطع الملابس القديمة وقد وضعت فيها لوحة خشبية، و قطعة من الطباشير أخرجها أبي من

الأرض في الغابة القريبة، وكنت قد وضعتُ تحت إبطي الأيسر غرارة بالية للجلوس.

عندما وصلت المدرسة وجدت طلاب الصف الأول جالسين تحت شجرة بِيبَل، ففرشت غرارتي في جنبهم وما أن جلست عليها بدؤوا يطردوني ويبعدونني عنهم و يشتمونني كأني شيئ نجس و كأنهم الملائكة نزلوا من السماء، فأحد الأستاذة الذي كان يجلس على الكرسي حول طاولة تحت ظل شجر آخر، أسرع إلينا صائحا ومستفسرا لماذا هذا الشغب. وعندما أدرك الواقع، أشار علي أن أجلس بعيدا عنهم في نهاية الصف، ثم كتب على السبورة بعض الحروف الأبجدية للغة الهندية وأمرنا أن ننقلها على لوحاتنا الخشبية ثم ذهب لشأنه. كان لهذا الحادث صدمة نفسية شديدة على قلبي إذ لم أكن أخرج من بيتي ولم أواجه قط مثل هذا السلوك في حيي، كانت رغبة الدراسة قد فُقِدت فلم أحاول نقل هذه الحروف في لوحتي، وكل همي هو أن أغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن. وعندما دق جرس المدرسة للمغادرة بدأت أجري إلى البيت، وأول ما فعلت هو إخفاء رأسي في حِضن أمي التي فهمت كل شيئ بدون أن أفوه بكلمة وبدون أن

تسأل أي شيئ وبدأت تلامس شعر رأسي بشفقة للغاية بينما كانت دموع عيني تبلل خدي.

صباح اليوم التالي، عندما ناداني أبي، رفضت أن أذهب إلى المدرسة فلم أستطع أن أتلقى مزيداً من الإذلال، فضمني إلى صدره وبقي هكذا لعدة دقائق ثم أخذ بذقني قائلا "يا بني، يبدو أن الذل قد قُدر لنا منذ أبد الآباد، فقد عاش مع هذا الذل آباءنا وأجدادنا، ولكن أريد أن لا تكون مثلنا في المستقبل، وآمل بأن الصبر على بعض الذل الآن سوف يخرجك من الذل الدائم في المستقبل، وسوف تصبح مثقفاً، وإذا بذلت جهدك في الدراسة وعملت مخلصاً لمجتمعك فسيحترمك الناس كما يحترمون بابا صاحب." لا أتذكر ما فهمت من قوله وما لم أفهم، ولكنني أدركت أنه يريدني أن أذهب إلى المدرسة وأتعلم، فحملت شنطتي وضغطت غرارة خالية في إبطي متوجها إلى المدرسة، وهناك جلست في نهاية الصف حيث كنت جلست بالأمس حسب إشارة الأستاذ هناك.

سيدي، جاء هذا اليوم بتجربة جديدة، فالأستاذ كتب على السبورة نفس الحروف التي كتبها بالأمس ثم علمنا كيف نكتب هذه الحروف وطلب منا أن نكتبها حسب إرشاده. إنه بدأ يتجول في الصف ويشاهد لوحات الطلاب واحداً تلو آخر بينما كان يحرك بيده اليمنى عصا صغيرة من حين لحين، ويرشد الطلاب بإشارة هذه العصا ويضربهم بخفة إذا اقتضت الحاجة، وعندما مر بي وقف ونظر إلى لوحتي من بعيد ثم قال لي شيئاً وعندما لم أفهم رفع العصا ولكن امتنع شاتما باسم طبقتي وقال: "أنت تريد أن تتعلم، هل سيدخل شيئ في رأسك، ثم قال لي مشيراً إلى بعض الحقول القريبة من المدرسة: إذهب إلى حقول العدس الأصفر وأتني بعصا جيدة فإن استخدمت هذه العصا عليك ستتسخ و لا تبقى صالحة للاستخدام على غيرك." وعندما عدت بعصا جديدة من الحقل وجدته جالسا في انتظاري، فأخذه من يدي وبدأ يضربني وعندما تعب، رمى به بعيداً ثم أخذ عصاه ومشى إلى الطلاب الآخرين وهو يقول لي: "عليك أن تأتي كل يوم بعصا جديدة".

و هكذا أصبح من عادتي أن أقطع له كل يوم عصا جديدة فلم ير مناسبا أن يستخدم علي حتى عصاه فضلا عن أن يأخذ بيدي لتعليم الكتابة أو يمس بلوحتي ليريني كيف تكتب الحروف، فكأنه ليس معلم يحب التعليم والتعلم، بل مُعذِب يتمتع بتعذيب الطلاب المساكين.

كل يوم كنت أقول لأبي إنني لا أريد أن أذهب إلى المدرسة وكل يوم كان يصر ويقنعني بدلائل مختلفة أن أذهب إلى المدرسة، وعندما سئمت من ذلك، امتنعت عن الحديث معه، وبدأت أخرج من البيت وأختار طريقاً غير طريق المدرسة وأذهب إلى الحقول وأقضي الأوقات هناك متسلقا الشجرات في بساتين المانجو أو مغتسلاً في النهر مع رعاة الغنم، ولكن إلى متى كان من الممكن أن أخفي كل هذا على أبي، ففي يوم من الأيام رآني وكنت أقفز في الماء من فوق جسر نهر صغير يمر بقريتي، فأخذني معه إلى البيت ساكتاً وضربني هناك لعدة دقائق ثم جلس على مربع التراب عند باب بيتنا غارقا في فكر عميق، و في هذا المساء كان كل شيئ ساكناً في البيت فلم يأكل أحد منا ولم

يتحدث بعضنا مع البعض، ونمنا جنباً بجنب على الفراش الذي بُسط على شجيرات الرز الجافة لتقليل البرد من الأسفل.

عندما استيقظت كان كل شيئ على ما يرام، كان أبي يصقل معوله وأمي تطبخ الخبز وتقلي الفلفل مع البصل لغدائنا. رفع أبي رأسه وألقى نظرة علي ثم قال لي، منذ اليوم ستأتي معي وتشاركني في العمل، فلعل الإله راما قد قدر لنا أن نعيش مذلولين ومستحقرين دائماً. بدأت أغدو وأروح مع أبي إلى الحقول، فكنا نحرثها ونعزقها، ونسقيها ونُعَشِبها، ونحصد ونحمل إلى البيادر، وكنا نعيش بين الطرد والشتم والنهر، ونصبر على كل ذلك الذل والهوان والتعذيب إذ استطعنا أن نحصل على ما يسد رمقنا.

وفي يوم من الأيام، ويا سيدي، ذلك كان أنحس يوم لنا، فبينما كنا نقوم بالتعشيب في حقل من الحقول أخبرنا صاحب الحقل بأن هناك جثة لبقرة قد ماتت الليلة البارحة في بيته وطلب منا أن نحملها إلى خارج القرية، فأسرعنا إلى بيته، ليس لأننا كنا نعبدها، بل طمعاً في جلد الجثة الذي سيجلب لنا بعض الروبيات الإضافية، فأقسم لك بأنني لم أذق لبن بقرة قط في حياتي، ولكنني شربت بولها عدة مرات

متبركاً ومتيمناً كالعادة. فأخذنا معنا رجلين من طبقتنا، وحملنا هذه الجثة على أكتافنا وبدأنا نمشي إلى الخارج، وعندما وصلنا إلى ملتقى الطريق عند دكان الشاي هجم علينا بعض الذين عُرِفوا في ذلك الحين كحراس الأبقار. ولعلك تتذكر يا سيدي، كان في ذلك الحين قد آل الأمر في بلادنا إلى حزب هندوسي متطرف، وبرعاية هذا الحزب قد ظهرت جماعات من الشبان المتفرجين العاطلين في زي حراس البقرة في كل مدينة وقرية مثل الفطر وكانوا يعتبرون أنفسهم فوق كل قانون من قوانين الأرض، فكانوا دائما يبحثون عن عذر أو آخر للهجوم على آكلي اللحوم، يضربونهم ويقتلونهم بدون خوف أو مؤاخذة، وبدون مبرر. إنهم عقدوا بنا إلى شجرة وبدأو يضربوننا بالعصي الغليظة والأحذية بينما كنا نصيح بأننا من عباد البقرة و لم نقتلها، و كل ذلك في حشد كبير من الناس، وأمام شرطي المخفر هناك، ولكن لم يترحم علينا أحد ولم يتقدم لنا من يستطيع أن يتدخل في الأمر، فكأننا في مجتمع ميت منهار لا يوجد فيه رجل رشيد.

سيدي، لا أتذكر متى أُغمي علي خلال هذه الضربات المبرحة، ولكن عندما أفقت وجدت أن كل عضو من أعضاء جسمي قد تورم

ولا يزال يؤلمني، كان الليل حالكا ولم يكن هناك أحد حولي، كان الآخرون لايزالون في حالة إغماء فاجترأت قليلا وحاولت أن أوقظ أبي ولكن وجدت جسمه باردا و نبضه ساكنا فأدركت أنه لم يستطع أن يتحمل الضربات ولبى نداء ربه، فبكيت طويلاً ثم قمت بحل عقدي بعد جهد جهيد، بعد ذلك أسرعت إلى أبي وفككت عقده إذ كنت أريد أن أغادر القرية في أسرع وقت ممكن إلى وجهة غير معلومة، فلم أكن أعرف ماذا سيفعلون بي لو وجدوني حيا في الصباح. حملت جثة أبي على كتفي ومشيت على الطريق الذي يذهب إلى الطريق الكبير، وعندما بلغت الجسر ألقيت جثته بأيدي المرتشعة في ماء النهر الذي يجري بصوت مريع، ثم واصلت المشي على الطريق ولم أتوقف إلا عندما سقطت على الأرض متعبا وكان قد أغمي علي.

عندما فتحت عيني حائراً وجدت نفسي على هذا الجسر، جسر "موتي محل" كما عرفتُ فيما بعد، و كنت في ذلك الحين أموت من الجوع والعطش الشديدين، ولعل بعض المارة قد أشفقوا علي، فوجدت بعض روبيات ملقاة حولي وكذلك بطانية بالية كانت قد ألقيت علي. كنت متحيراً ولم أستطع أن أقرر ما أفعل إذ مر بي أحد

الباعة مع عربة الفواكه كأن الله بعثه إلي خاصة، فأدرك من محياي حالة جوعي وعطشي، ورمى إلي بتفاحتين فاسدتين و عبوة صغيرة من الماء فأكلت وشربت وحمدت الله. ومنذ ذلك الحين، جعلت من هذا المكان بيتي أقضي النهار متشحتاً فوق الجسر وأبيت الليل نائما تحت الجسر عند هذا العماد. وهذه هي قصتي يا سيدي، ليس وراءها شيئ. والآن قد آن أوان الكسب، فأنت تعلم، الناس العائدون من مكاتبهم يتصدقون على المتسولين إذ يقفون على هذا الجسر لشراء الفواكه والخضراوات من الباعة، فاستأذنك.

(2016)

جامع القروش

جلست على أدراج ضفة كالي غات حيث كان ماء نهر الكَنْكَ القذر يقبل الأدراج باتصال فيلقي عليها الأوساخ في بعض الأحيان، ويذهب بها في أحيان أخرى. منذ أن تعينت في جامعة مدينة بتنه أستاذا كنت تعودت على أن أتوقف على هذا الساحل حوالى ساعة خلال روحاتي من الجامعة إلى شقتي للانتعاش قليلا وللتخلص من الشعور بالوحدة، وللحصول على بعض الراحة القلبية، وذلك يحدث كل يوم تقريبا إلا أن أكون على عجل. وبينما كنت أنقل نظري في وجوه الناس الزائرين، رأيت هناك بعض الفتيان الذين يغوصون في هذا النهر ليجدوا في قاعها بعض القروش، وكنت قد تعرفت على بعضهم خلال هذه الوقفات اليومية، فلوحت إليهم بيدي ولوح بعضهم لي بأيديهم. وعندما أوشكت الشمس على الغروب بدأوا يغادرون بقروشهم التي أخرجوها من بطن هذا النهر الذي بمثابة معبود لهم فلا يسمونه إلا أن يردفونه كلمة "الأم" كأنها جزء من إسم النهر. ولذلك يرمي فيه الناس قروشا خلال مرورهم بالجسر القريب

ويحتسبون ذلك أجرا عند الآلهة بدون أن يدركوا بأن عملهم هذا يعرض أطفال الفقراء الجائعين للخطر. قد غربت الشمس تاركة سماء مصفرة خلفها ولكن فتى هناك لا يزال يبحث عن القروش، وعندما استعد هذه المرة ليلقي نفسه في مياه النهر، استدعيته ولكنه ربما لم يسمع، فقمت من مكاني واقتربت من مكانه، وعندما خرج هذه المرة من مياه النهر وجدني أمامه، فبعد أن أخرج من فمه ثلاثة قروش، سلم عليّ مبتسما ولكن الحزن المرتسم على وجهه كان يبدو جليا. قلت له "لماذا لم تغادر بعد؟ فقد غرقت الشمس والغوص خطر في مثل هذا الوقت. فأجاب قائلا: "أعرف، فقد ذهب ضحيته عدد من أصدقائي خلال السنة الماضية، ولكن لم أجد اليوم قروشا تكفي لإطعام أسرتي، فالنهر يفيض بأمطار الأمس الغزيرة وهذا يجعل بحث القروش في قاع النهر صعبا جدا." كان ذلك يوم السبت ولم يكن لدي أي تفكير للتدريس في اليوم التالي فأشرت إليه أن يجلس بجنبي ثم عرضت عليه حزمة رقائق البطاطس، وبعد تبادل بعض أطراف الحديث قلت له "هل يمكن أن تخبرني عن أسرتك؟" فحدق في الخلاء أمامه قليلا محاولا أن يتمالك تسارع أنفاسه وأن يجمع أفكاره ثم شرع في القول:

سيدي! لا أعرف من حيث أبدأ ولكن هناك بعض حوادث ارتسمت في ذهني في صورة لا تمحي وكأنها حدثت بالأمس. أتذكر جيدا، كأن ذلك اليوم كان أصعب يوم لي في حياتي، فقد كان مضى على وفاة أبي ثلاثة أيام ولم يكن في البيت شيئ نأكله، كانت أمي لاتزال تبكي بوقفات وبعينين جافتين قد نفدت دمعاتها. وفي اليوم الذي مات أبي، أحضر لنا الجار الذي غرفته في اليسار طعاماً فأكلت مع أشقائي والضيوف الذين كانوا من أصدقاء أبي وهم حضروا للتدفين، ثم بدأوا يغادرون واحدا تلو الآخر حتى غادر آخرهم وأقربهم إلى أبي عند المغرب. ولم يكن هناك أحد من أقربائنا، فلم أسمع قط عن جدي أو جدتي، أو عن أي قريب آخر. وهكذا بقيت وحيدا مع أسرتي. وفي اليوم التالي أحضر الغداء جارنا الآخر الذي يسكن في جانب اليمين لغرفتي فأكلنا بنهم رغم همنا البالغ على موت أبينا إذ لم يكن قد وضع أحد منا لقمة في فمه منذ مساء الأمس، ولكن أمنا لم تذق شيئا حتى اليوم كما لم تذق شيئا بالأمس فقد كانت أصيبت بصدمة عنيفة أوقعتها في حيرة ودهشة لا تعرف إلى من تذهب، وممن تسأل، لا

صديق لها ولا قريب، لا مواسي لها ولا موازي، فكان أبي كل شئ بالنسبة لأمي، ثم أطفالها الذين لا يفهمون أكثر الأشياء.

كانت جاءت مع هذا الرجل مدينة بتنا هاربة من بيع أبويها الفقيرين في القرية وحاملة في عيونها أحلاما كثيرة، ومترقبة مستقبلا ثريا في هذه المدينة الغريبة، ولكن أبي الذي كان أوقعها في حبه بمظاهرة حياة مترفة في القرية لم يكن في الحقيقة كما كان أظهر نفسه، فكلما ذهب إلى القرية كان يظهر بملابسه وطريقة لبسها كأنه يرجع من مدينة الذهب وكأنه صاحب أموال طائلة، واكتشفت أمي حقيقته عندما فرت معه ووصلت إلى هذه المدينة. فمسكنه كانت غرفة مستأجرة في مبنى قديم يبدو كأنه على وشك الانهيار بسبب الجص الإسمنتي المنتفض من هنا وهناك من الجدران وأثر الماء عليها، والرائحة الكريهة المنبثقة من المزبلة الواقعة بجوار المبنى قد جعلت لها العيش هناك صعبا لأسابيع حتى تعودت عليها مثل الآخرين هناك.

كانت قد فكرت مرارا أن تفر من هناك وتعود إلى بيتها في القرية، ولكن ماذا لو رفض أبواها عودتها إلى البيت؟ وماذا سيقول الجيران عنها؟ وهكذا طافت برأسها أفكار وأسئلة مختلفة لأيام وفي النهاية

فضلت الحياة التي كانت اختارت لنفسها، الحياة مع هذا الرجل الفقير الذي يقود عربة ريكشا الدواسية لكسب القوت. ولسوء حظه، أكثر الناس لم يعد يركبون ريكشا الدواسية بسبب حلول ريكشا ذات البطارية التي توصل الركاب بسرعة وبكراء أقل، فأعطته أمي كل ما جاءت به من نقود ومجوهرات وحلي ليشترى عربة ريكشا ذات البطارية، وهكذا بدأ يكتسب أبي أكثر من ذي قبل. مضى على مجيئهما في هذه المدينة حوالى عشر سنوات ولم تعرف ماذا حدث في القرية خلال هذه السنوات إلا أنها سمعت عن موت أبيها في السنة الأولى، وعندئذ كم اشتاقت أمي أن تسافر إلى بيتها وتزور أمها ولكن لم تجترأ على أن تعود فلم تستطع أن تتحمل نظرة الجيران والأقارب الذين يقولون عنها أشياء ويهمسون فيما بينهم إذ كان بطنها قد انتفخ من هذا الرجل الذي جاء بها إلى هنا. مضى على ذلك ستة أشهر فسمعت عن موت أمها العزيزة فبكت بكاء طويلا وقضت طول الليل ساهرة متذكرة أيام طفولتها في أحضانها، وحبها لها، وشفقتها عليها، وشجارها مع الجيران لابنتها هذه، بينما كان مولودها الجديد يخرجها

من أفكارها ببكاءه ويآسيها بأنينه وينسيها الأحزان برضاعته. وهل تعرف من كان ذلك الطفل، أنا ذلك الطفل.

تبعني أولاد آخرون حتى بلغ عددنا السبعة بما فينا أربع بنات وثلاثة أبناء، وكنا نأكل ونلعب معا، ونتشاجر فيما بيننا أو مع أولاد الجيران. وفي يوم من الآيام زار هذا الحي الذي يعيش أهلها في ذل وبؤس بعض أفراد منظمة رفاهية غير حكومية فتكلموا مع الأطفال اللاعبين في الزقة وآبائهم وأمهاتهم وقاموا بترغيبهم في الذهاب إلى المدرسة الرسمية االقريبة وقاموا بتوزيع بعض الكتب والأقلام، وذكروا لهم وجبة نصف النهار التي توزع مجانا على طلاب المدرسة. فبدأت أزور هذه المدرسة مع بعض الأطفال تحت طمع الوجبة ثم بدأ عدد الأطفال يقل حتى لم يبق إلا عدة أطفال من الحي الذين نشأت لديهم رغبة في التعليم ما عدا الوجبة، وكنت واحدا منهم فلم نقبل مثل الآخرين أن نعمل في الورشة الميكانية في الحي، أو نغمز الطحين لدى الخباز، أو نغسل الأواني في مطعم وسخ. وأتذكر جيدا ذلك اليوم الذي طلبني فيه أبي أن أبحث عن عمل لنفسي، أو أعمل مع صديقه الذي يقود باصا صغيرا من هذا

الحي إلى حي آخر، فرفضت كل الرفض وقلت له بصوت صريح بأنني أريد أن أواصل الدراسة في المدرسة لأكون مسؤولا كبيرا، فتعجب أبي مما قلت له ثم مرر يده على رأسي بشفقة قائلا افعل ما تريد، أنت حر.

ولم يمض على هذا الحوار بيني وبين أبي أسبوع حتى حدث هذا الحادث الفاجع الذي شتت جميع أحلامي، ووقع علي وعلى أسرتي كصاعقة يا سيدي. كان أبي قد خرج مع عربته البطارية عند فلق الصبح كالعادة بينما كنا لا نزال في فراشنا. استيقظت بعد ذهابه حوالى نصف ساعة وبدأت أستعد للمدرسة، وبينما كنت أمشط شعر رأسي أمام مرآة في الشرفة إذ سمعت أصوات بعض أطفال الحي يصيحون بإسمي، وكان معهم بعض الرجال يحملون رجلا متلطخا بالدم ولم يكن ذلك الرجل إلا أبي فدهشت وسمعت رجلا يقول وكأن صوته يأتي من بعيد "كان أبوك يقود عربته البطارية الصغيرة مملوءة بالراكبين عندما اصطدمت به حافلة من الخلف وقتلت جميع من كانوا عليها بما فيهم أبوك."

سيدي تم التدفين ثم غادر أصدقاؤه، ومضى على موت أبي ثلاثة أيام ولم تشعل أمنا موقد البيت، فكـان أشقـائـي يئنـون بالجـــوع، وشقيقي الأصغر، الطفل الرضيع يحاول أن يمضغ حلمة أمه، ويحاول أن يمص بعض قطرات اللبن منها، ثم يجهش بالبكاء عندما لا ينجح في الحصول على بعض قطرات اللبن، فقد كانت ثدياها قد جفت مثل عينيها إذ لم تأكل منذ موته. كنت أكبرهم، ولم أكن اتجاوز الخامس عشر من عمري، وكان علي أن أكتسب شيئا رغم أنني لم أكن متأكدا ماذا أفعل، فخرجت من البيت وتوجهت إلى المدرسة متذكرا وجبة منتصف النهار.

وجلست مع الأطفال الآخرين على حصيرة المدرسة في انتظار الطعام، ولكن أحد أساتذتي لاحظني فطلبني وبدأ يضربني بعصاه قائلا أين كنت منذ ثلاثة أيام بدون أن يعطيني فرصة للكلام، أو يسمع عن عذري وخلال ضربات الأستاذ حاولت أن أخبره عن موت أبي، ولكنه ما إن سمع عن كلمة الموت حتى اشتعل غضبا وبدأ يضربني بشدة أكثر قائلا، "أليس لديك أي عذر آخر، أنت القذر

تميت أباك." فلم أر إلا أن أفر من هناك، فذلك الأستاذ معروف بكرهه ونفوره من الفقراء والأراذل فيشق عليه وجودهم في المدرسة.

عندما مررت جريا بهذا الساحل توقفت هنا وجلست على أحد الأدراج متفكرا ماذا أفعل، ووضعت رأسي بين ركبتى وبدأت أبكي وأتشرد في ظلام حالك من الخيال. ولم أدرك كيف مضى ثلاث ساعات حتى أفقت قليلا فألقيت نظرة حولي، ورأيت بعض الناس ينزلون من الأدراج وبعضهم يتسلقونها، وعلى بعد بضعة أقدام رأيت أطفالا يغوصون في النهر ثم يخرجون فرحين، وعندما أمعنت النظر فيهم أدركت بأنهم بعد خروجهم من الماء يفتحون أفواههم ويخرجون منها شيئاً، فسريت نحوهم متوجسا واقتربت منهم فشاهدت قروشا تخرج من أفواههم. ظللت أشاهدهم لساعة مدهشا حتى اقترب مني احدهم وقال لي: "أنت تبدو حزينا، هل تريد هذه" وهو كان يشير إلى قرش في يده، فهززت رأسي في نعم، فقال: "لماذا لا تنضم إلينا، ستجد قروشا تغنيك عن والديك"، فقلت له بأن والدي قد مات قبل ثلاثة أيام، اما الأم فليس لديها شيئ، وما إن سمع ذلك اقترب مني ومرر يده على رأسي كرجل كبير ثم أخذ

بيدي وجرني إلى أصدقائه، وقال لهم: "هذا صديقي الجديد وسيجمع القروش معنا منذ الغد، ألا يمكن أن يعطيه كل منا اليوم عملة روبية واحدة." ففعل ذلك كلهم حتى اجتمع لدي ثلاثون روبية. كانت الشمس قد اصفرت وكان وقت العودة قد حان فخرجت معهم من الساحل ثم توجهت إلى بيتي.

عندما دخلت بيتي كان بيدي حزمة من الخبز ، وحزمة أخرى لكاري اللحم كنت قد اشتريتها من مطعم الحي، كانت أمي لا تزال تجلس متوكئة على الجدار، وكان إخواني وأخواتي يجلسون حولها محزونين، منهوكين، فكأن كل منهم قد يئس من الحياة و تأكد من أنه ليس هناك من يكسب لهم ويطعمهم. وعندما التقى عينيي بعيونهم ولاحظوا ما كان في يدي من الطعام نشأ في عيونهم نوع من التلالأ فجأة، وأول ما فعلت هو رش الماء على وجه أمي ثم صببت اللحم في صحن، وبعد ذلك وضعت لقمة في فم أمي وتابعت بكأس من الماء، أكلت الأم بعض لقمات فعادت إلى الحياة من جديد، ولكن أجهشت بالبكاء مرة أخرى بعد ما وضعت

رأسي في حضنها قائلة: "أنت أملنا الآن، وأنت كل شيئ لنا." ثم دعت جميع الأبناء للأكل.

فكل واحد منا بدأ يأكل بنهم، ورغم أن الطعام لم يكن كافيا لملء بطوننا ولكن كان كافيا ليعطينا حياة جديدة، ويلقي فينا رمقا للحياة.

ويا سيدي، منذ صباح اليوم التالي بدأت أحضر هذا الساحل لأجمع عددا من القروش تضمن لأسرتي بعض الخبز . أوه، هذا هو أخي الصغير جاء يبحث عني فقد تأخرت كثيرا ولعل أمي قلقت عليّ، أستأذنك الآن.

غادر هذا الفتى وترك في رأسي أسئلة كثيرة تدوي في أعماق نفسي، قمت أنا أيضا من مكاني وبدأت اتسلق الأدراج حتى خرجت من الساحل، ووجه ذلك الفتى لايزال يدور أمام عيني.

(2018)

آصفة

علت الشمس على رؤوس الجبال وأطلت على الوادي فقامت بتقليل شدة برودة شهر يناير، وأراحت الناس من الاقشعرار، وأتاحت لهم فرصة ليحصلوا على بعض الحرارة بعد البرد القارس. خرجت آصفة من خيمتها متثائبة فرأت صديقاتها وبعض رجال ونسوة قبائلها يفكون حبال قطعان الغنم والخيول ليذهبوا بها إلى المراعي في الغابات. فبدأت تفك قطيعها بسرعة لتلحق بصديقاتها اللاتي قد بدأن يمشين إلى الغابة رويدا رويدا، إذ لم ترد أن تضيع الوقت في غسل الوجه وأكل الفطور، وتتخلف عنهن، وقررت بأنها ستشرب لبن إحدى المعز بعد الوصول إلى المرعى وهذا سيكفي للفطور. كانت آصفة بنتا صغيرة لم تكن تتجاوز الثامنة من عمرها ولكنها تحملت جميع مسؤليات قطيعها على عاتقيها النحيلين، فهي ترعاها وتسقيها وتعتني بها كل الإعتناء. كان وجهها البريئ يدل على بساطتها وسذاجتها، وكان كلامها يشف عن قلبها الملائكي وعن عدم علمها بالدنيا وما فيها. قبيلتها باكروال لا تزال تعيش حياة

بدائية بسيطة فلم تمسها الحضارة بعد، وتتنقل للعيش بين مروج وادي كشمير وغابات جامو شتاء وصيفا، وهي لا تزال تكتسب رزقها ببيع الأغنام والخيول.

عندما دخلت مع صديقاتها الغابة وجدت في زاوية مبنى صغيرا مربعا، وقد كان تم بناؤه في المكان الذي كانت ترفرف فيها بعض الأعلام الزعفرانية في السنة الماضية، وكان فيه رجل ذو رأس ألمس ووجه محلوق، لابسا قطعة واحدة طويلة من القماش من لون زغفراني، وكان قد رسم في وسط جبينه خطا أبيضا. وكان قد جلس متربعا كأنه يركز على نفسه ولكن الفتيات شعرن مرات عديدة كأنه يحدق فيهن، وشعرت آصفة كأن عينيه تشقان طريقهما إلى صدرها مثل النبل، وهذا أثار في نفسها نوعا من المخاوف.

عندما عادت آصفة في المساء، ذكرت ذلك لأبيها، فقال لها أبوها "أما المبنى فمعبد لمواطنينا، أما الرجل في الملبس الزعفراني، فهو كاهن المعبد، وأظنه رجلا كريما، وعابدا زاهدا لا رغبة له في الدنيا ولا عمل له إلا إرشاد الناس وإصلاحهم. الرجال من هذا النوع دائما يتقون إلههم ولايؤذون أحدا." عندما سمعت آصفة هذا الكلام

من أبيه، تبددت المخاوف من نفسها واطمئنت.

وفي اليوم التالي عندما دخلت آصفة المرعى مع صديقاتها شعرت نفس الشئ الذي شعرت بالامس، فأرادت أن تكون على حذر منه، وتقول لصديقاتها أن يأخذن حذرهن، ولكنها تذكرت قول أبيه بأن مثل هذا الرجل لا يؤذي أحدا، فهشت كل مخاوفها من قلبها وقضت النهار مطمئنة القلب. عندما حضر وقت العودة وجدت أن ماعزا من قطيعها غائب فقالت لصديقاتها "إذهبن مع قطعانكن. سأبحث عن ماعزي المفقود ثم آتي، وهناك لا دافع للخطر، فهناك هذا العابد وقال لي أبي بالأمس إنه رجل كريم." ثم بدأت تبحث عن ماعزها، فذهبت أولا إلى عين الماء، ربما كان ذهب إليه لشرب الماء وضل الطريق، ولكن لم تجد هناك، ثم بحثت عنه في أمكنة أخرى ولكن لا أثر له، فيئست وبدأت تعود إلى مخيمها إذ كانت الشمس على وشك الغروب، ولكن عندما مرت بالمعبد سمعت صوت ماعزها يأتي منه، فأطلت من الباب المفتوح، وما أن أرادت أن تدخل منه حتى رأت ذلك العابد الزاهد يسرع إليها، وقبل أن تفوه بكلمة كان قد وضع يده على وجهها ثم دفعها إلى غرفة في صحن المعبد. لم يكن في الغرفة

رجل بل خمس رجال، وعندما رأوها تلالأت عيونهم من حقد وبغض، فوثبوا عليها كما تثب النسور على صيدها، ولم يعطوها مهلة للحظة حتى تتمكن من الصراخ والعويل. وبدا من وجههم كأنهم نجحوا في تنفيذ خطة كبيرة، وكيد عظيم. بدأ العابد الزاهد يتلاعب بجسم هذه البنت المسكينة التي لم تكن تتجاوز إلا الثامنة من عمرها حتى الآن، ثم تبعه الآخرون، ونهشو جسمها نهشا وعندما شبعوا دعوا صديقا آخر لهم. وظلو يقترفوا هذه الجريمة مرات كثيرة لطول أسبوع في داخل هذا المعبد بدون أي خوف من الإله الذي بنى له هذا المعبد، وبدون أي خوف من السلطة وقانون البلاد. وفي النهاية قتلوها ورموا جثتها في مكان ناء بدون أي إحساس بالجريمة بل شعروا كأنهم أنجزوا شيئا عظيما، ووصلوا معلما مهما من معالم خطتهم. فكان همهم الوحيد هو أن يقوموا بإرهاب هذه القبيلة المتنقلة لكى تغادر هذا المكان ولا تعود أبدا في المستقبل.

****

تحلقت روح آصفة الكئيبة بعد الخروج من جسمها قليلا ثم تعلقت فيما بين الأرض والسماء، وبدأت تنظر إلى الأرض بنظرة حزينة. رأت جسمها فأدركت كأنها لا تزال تشعر بما عانت منه جسدها، وتمنت لو أن أباها عرف حقيقة هذا العابد الشنيع ونبهها منه، فليس كل من يظهر في ملبس عابد رجل طيب، بل هناك ذئاب في ملابس العباد الزهاد يحملون في قلوبهم الحقد والضغينة، ثم نظرت إلى مخيمها فوجدت أبويها لا يزالان يبكيان، ويواسي واحدهما الآخر، وصديقاتها تبدون حزينات خائفات لا تتجرأن على أن تقصدن إلى المرعى. ألقت نظرة في المدينة القريبة فرأت الناس يتحدثون عنها وعن الذين اقترفوا جريمة اغتصابها وقتلها، ولكن يا للعجب! إنهم لا يبدون غاضبين على المجرمين، ولا يظهرون أي ترحم على البنت الصغيرة المغتصبة، وأعجب من ذلك، إنهم لا يخرجون ليطالبوا السلطة بإعدام المجرمين بل –عكس ذلك– يخرجون في مسيرات ليخالفوا إلقاء القبض على المجرمين وفي أيديهم رأيات الوطن. أليس من العجيب، الناس يخرجون إلى الشوارع والطرقات لدعم المجرمين، وفي مقدمتهم ساسة المنطقة الذين

انتخبهم الناس لإقامة بالعدل والحفاظ على القانون في المنطقة. أهذا ليس من عجائب الدنيا وغرائبها. هل يدعمون المجرمين لأنهم ينتمون إلى ديانتهم، وماذا لوكانت البنت تنتمي إلى نفس الديانة، هل فعلوا نفس الشئ؟ ولكن في كل مكان إنسان رشيد، وربما يبقى وجود الدنيا بسببه كما قالت لها جدتها مرة خلال المسامرة. ولا بد من أن يكون هناك إنسان كريم، وبدأت تبحث عن هذا الإنسان إذ لاح لها وجه جميل لامرأة كانت تلبس معطفا أسود على قميص أبيض. كانت تعلن بكل شجاعة وجراءة بأنها ستحارب للفتاة المسكينة. ووالله حاربت حتى ألقي القبض على الذين اغتصبوها وقتلوها ثم واصلت هذه المرأة الطيبة محاربتها رغم كل التحديات والتهديدات حتى حُكم على ثلاثة منهم بالسجن المؤبد. وزج بثلاثة آخرين في السجن لمدة لا تقل عن خمس سنوات. والآن اطمئنت روح آصفة قليلا ثم رفعت نظرتها إلى السماء ودعت لتلك المرأة الكريمة، ثم توجهت إلى السماء وبدأت تحلق في البحث عن المكان الذي كان حُجز لها في الجنة.

(2019)

نصف الموز

ذلك المبنى الجميل الأحمر بدا لي مثل قصر فخم، وأعبجني منظره الرائع ولكن سرعان ما أدركت بأنه ليس مبنى قصر بل محطة قطار مدينة لكناؤ، وغاب عن قلبي أثر جمال المبنى إذ رأيت صفا طويلا للركاب في انتظار قطار "لكناؤ ميل" المتجه إلى مدينة دهلي. اشترى عمي لنا التذاكر واصطففنا، وفي نصف ساعة قادمة أدركت أن الصف خلفي قد صار أطول من الصف أمامي، وكان يبدو من محيا رجال الصف أنهم أُجراء أو من طبقة الفقراء والشرطي الذي نجح حتى قبل قليل في جعل الصفوف مستقيمة بفضل عصاه الغليظة يحاول جادا أن لا ينكسر الصف وأن لا يحدث الفوضى، وذلك بدون نجاح كبير. وما إن لاح لنا القطار قادما أدركنا أن بعض الرجال أسرعوا إليه وتشبثوا بمقبضي باب العربة الأولى للقطار، وكان شرطي يجري خلفهم ويضربهم بعصاه ولكن لم يترك أحد منهم باب القطار حتى يئس الشرطي وتركهم وشأنهم. وقف القطار أمام صفي، وبينما كنا نفكر عما إذا كان بإمكاننا أن نجد مكانا للجلوس أو

حتى الوقوف فيه، فُتح باب القطار فأسرع الناس إليه وهم يقعون بعضهم على بعض مع حدوث بعض المشاجرات الخفيفة والصراخات العالية حتى اكتظت العربة بالناس فجلس من نجح في امتلاك المكان للجلوس، وقام من وجد المكان للوقوف فيه، وتعلق بمقبض الباب من لم يجد المكان للوقوف أو القعود. وأخبرني أحد الركاب بأنه ليس لعامة الناس إلا نصف عربة في بداية القطار ونصف عربة في نهاية القطار، وأما العربات بينهما فهي متاحة للحجز مسبقاً للأغنياء فبعضها مكيفة مريحة وبعضها صالحة للنوم. أما أنا وعمي فنجحنا في العثور على مكان للوقوف فيه عند المرحاض، وقضينا طوال الطريق قائمين بدون أي حركة وبدون أن نعبس وجهينا للرائحة الكريهة النابعة من المرحاض.

كان ابي مات شابا قبل شهر فلم يبق لي إلا أن أخرج إلى إحدى المدن لكسب ما يسد رمقنا، ولجمع ما يكفي لإتمام زواج أختي المسكينة فقد تمت صفقة زواجها مع إحدى الأسر الكريمة في القرية المجاورة قبل وفاة أبي بثلاثة أشهر فقط، وقد كان تم القرار على إقامة حفلة الزفاف في السنة القادمة. لم تكن قائمة الطلب للأسرة طويلة

ولكن كانت تعني كثيرة بالنسبة لنا، فلم يكن لدينا في القرية إلا البيت وقطعة صغيرة للحقل كنا نزرع فيها بعض الخضراوات. وبعد موت أبي وقعت مسؤولية البيت على عاتقي النحيل، فبدأت أفكر في الطرق عن كسب المال وفي النهاية قررت أن أذهب مع عمي إلى مدينة دهلي، وأعمل معه هناك في دهانة البيت مثله ومثل بعض جيراننا.

كان عمي يسكن في حي خانبور في دهلي في مبنى ذي طابقين، في الطابق الأرضي كان رحى الطحين لصاحب المكان، وفي الطابق الأول كان عمي يسكن مع بعض جيرانه وأصدقائه في غرفة. عندما دخلنا الغرفة وجدناها خالية تماما فكانوا قد ذهبو للعمل، وبما أننا كنا تعبانين وقد سافرنا طول الليل بدون نوم فضلنا أن نستريح طوال اليوم. وفي اليوم التالي رافقتهم إلى سوق العمل فوجدت هناك ازدحاما كبيرا لأنواع من الأجراء، ففيهم البناء، والسمكري، والكهربائي، والنجار وكلهم ينتظرون لرجل أو آخر ليأخذهم للعمل بعد المساومة. جاء إلى عمي رجل ورضينا أن نذهب معه للعمل بعد أن تم القرار على إعطاء الدهان ثلاث مئة روبية ومساعده

مئتي روبية، وكنت المساعد. عملنا في بيته لثلاثة أيام حتى أكملنا الطلاء. وفي اليوم الرابع كنا في سوق العمل مرة أخرى نعرض أنفسنا للعمل. مرت هكذا عدة أيام، وفي يوم من الأيام بينما كنا نعرض أنفسنا للعمل توجه إلى عمي رجل وتمت الصفقة بعد المساومة، وبما أن العمل كان تافها فلم يكن في حاجة إلى مساعد، فأشار عمي أن أرجع إلى الغرفة.

فكرت ماذا سأفعل إذا رجعت إلى غرفتي سوى الاستلقاء والتقلب على الفراش فعدلت عن فكرة العودة إلى الغرفة وبدأت أهيم على وجهي وانتقل من طريق إلى طريق، ومن حي إلى آخر، فمنذ أن وضعت القدم في مدينة دهلي في البحث عن العمل ما رأيت إلا الازدحام في كل مكان، فالشوارع مزدحمة، والباصات مزدحمة، وفي البداية كلما خرجت من الغرفة خفت أن أضل طريقي، فلم أخرج وحيدا لعدة أيام ولكن بعد ذلك تعودت الإزدحام، وتعودت شجار الناس وتوبيخهم بعضهم للبعض لوضع قدم في داخل الباص المكتظة بالناس وهي تجري بسرعة كثيرة. وخلال هذا التجول كانت أشياء كثيرة تمر برأسي فهل مئتي روبية التي لا أتأكد من الحصول

عليها في كل يوم ستكفي لسد رمق أسرتي ولزواج أختي أم لا. ماذا أفعل؟ هل هناك عمل آخر يُكسبني أكثر مما اكتسب الآن وذلك بصورة مؤكدة. وليس لدي أي خبرة إلا أنني كنت رافقت أبي إلى سوق القرية لبيع الخضراوات في بعض الأحيان.

مستغرقا في هذه الأفكار، وهائما على وجهي وصلت في حي مكون من الأكواخ وبعض قطع الأرض الخالية وجلست على الحافة المرتفعة لجسر صغير بني على مجرى مياه المصرف لالتقط أنفاسي واستريح قليلا فكان التعب قد دب في أعضائي. وهناك استلفت اهتمامي منظر بعض الأطفال في الملابس الممزقة البالية وهم كانوا يجرون عراة حفاة خلف بائع يدفع عربة الفواكه اليدوية ويلحون عليه أن يعطيهم شيئا منها، فانتقى البائع بعض الفواكه الفاسدة ورمى بها إلى الأطفال الذين وثبوا عليها متنافسين كما يثب الصقر على صيده. وهذا ذكرني أبي، فكان يعطي الخضراوات التي فسد بعضها أو نصفها إلى الفقراء بدون أن يأخذ منهم أي سعر لها. ولم يخطأ نظري في ملاحظة وجود قرش أو قرشين في أيدي الأطفال، وعند ذلك خطر ببالي خيال نادر وشعرت دويا في ذهني لقول أحد

الساسة "كل شيئ يباع في الهند". وفي حينها قررت في نفسي قرارا حاسما فتح لي طريق النجاح وجلب علي نفعا عظيما فيما بعد.

قمت من الجسر وتوجهت إلى سوق الخضراوات والأثمار بعد الاستفسار. جلت في أزقة السوق الضيقة فوجدت كمية غير قليل من الأثمار والخضراوات التي قد فسد بعضها أو أكثرها فالتقطت منها بعض الموز التي كانت تميل إلى السلامة أكثر منه إلى الفساد ووضعتها باحتياط في منديلي الكبير الذي كنت أضعه دائما على عاتقي أو ألفه حول رأسي للوقاية من الشمس وهذا المنديل جزء مهم من حياة فلاح هندي فهو يستخدمه لأشياء كثيرة. فيلفه حول رأسه للوقاية من أشعة الشمس، وليحل مكان الخوذ عند المحاربة، ويربطه حول خصره عند العمل في حقوله، ويمسح به وجهه عندما يغسله، ويجعل منه كيسا عند التسوق في السوق. وهذا الأخير هو الذي ما كنت فعلت في ذلك الوقت. ثم حملته على ظهري وتوجهت إلى غرفتي التي كانت لا تزال خالية إذ لم يعد أحد بعد.

نشرت المنديل على الأرضية بكل احتياط ثم أخذت موزة وقطعتها في قطعتين، وضعت القطعة السليمة في جانب على ورقة من

الصحيفة اليومية، ووضعت القطعة الفاسدة في جانب آخر في بوليثين القمامة، فعلت نفس الشيئ بالموز الأخرى حتى توفرت لدي الأنصاف السليمة لعدد من الموز، جعلت من منديلي كيسا مرة آخرى وحملتها على ظهري، وخرجت إلى نفس الحي الذي كنت عدت منه في الصباح.

عندما نشرت المنديل على الحافة المرتفعة للجسر، نظر إلي الأطفال الذين كانوا يلعبون هناك بنظرة عجيبة كأنهم رأوا شيئا لم يكن يعرفوا من قبل ولكن سرعان ما تغيرت نظرتهم العجيبة إلى نظرة إعجاب والتفوا حولي، وعندما مد أحدهم إلي يده بقرش طرأ على قلبي نوع من السرور ومددت إليه نصف الموزة، فبدأ يأكل بكل شره، ولاحظت نوعا من السرور على وجه ذلك الولد أيضا، فلم يكن يتوقع قط أن يشتري نصف موزة. وفي أقل من نصف ساعة كان منديلي خاليا تماما، وكان جيبي مملوء بالقروش. وهكذا شرعت في تجارة رابحة زادت وتنظمت بمرور الأيام، فحلت العربة اليدوية محل المنديل وجلت بها في أحياء أخرى مماثلة وبدأت تلتف حولي النسوة تنتقين أنصاف الموز لأبناءهن بأرخص أسعار. **(2019)**

عظام العز

"سأرجع في المساء لجمع الطحين، وأريد ذلك على كل حال بدون أي عذر." قال ذلك التاكور مهدداً بعد توزيع أكياس الخيش المملوءة بالقمح، ثم جلس على عربة الثور ومضى. لاحظ أويس كل ما جرى بفيه المفتوح من الصدمة فلم يشاهد هذا النوع من الاضطهاد في قريته قط، ولكن منذ جاء هنا ليمتلك ما تركه من الإرث جده من أمه وليراعي جدته الضعيفة قبل نصف شهر شاهد ذلك ثلاث مرات، فالنسوة يطحن للتاكور بدون أية أجرة، والرجال يعملون في حقوله بدون أي بديل، فهو يجئ ليسوقهم إلى حقوله كلما شاء. اشتعل أويس غضبا ولكن ماذا يمكن أن يفعل وحيدا، الرجال يبدون خائفين من التاكور فضلا عن النسوة. رأى جدته العجوز تدير الرحى الحجرية اليدوية فشعر كأن رأسه يغلي من شدة الغضب ولكن هل غضبه سيفيد هناك؟ هل يمكن أن يغير مجرى حياة الناس هناك وحيدا؟ ولماذا لا يقوم ليحاول إقناع الناس أن يرفضوا عمل التاكور أو يهجموا عليه؟ وما أن خطر بباله هذا الخيال حتى قام بكل

عزم وتوجه إلى بيت الشيخ وهو أخو جده المرحوم، وحاول أن يشعل في قلبه شعور العز والوقار ويحضه على ترك حياة الذل والهوان، فقال له الشيخ "يا بني، قد احتج ابني الشاب مرة ضد هذا الإقطاعي الظالم بعد أن رجع من المدينة متعلما ومثقفا، ولكنه غاب بعد ذلك ولم أجد له أثرا، وماذا يمكن أن يفعل شيخ هرم مثلي الذي يعد أيامه." فقال له أويس "ممكن أن يموت موت العز على الأقل." ثم مضى إلى بيت آخر وهكذ زار ثلاثين بيوتا واحدا بعد واحد محاولا أن يثير فيهم وعيا للعز والوقار، ويقظة للحرية، فقد مضى على استقلال الهند خمس سنوات وهم لايزالون يعملون مثل العبيد. ورغم كل محاولاته أدرك كأنه لم ينجح في تحريك حجر الذل والهوان عن قلوب الرجال ولو قليلا، ولكن كان رأى نوعا من اللمعان وأمل النجاة في عيون بعض نسوة القرية، فزادت همه وبدأ يفكر في خطة النجاة.

صلى الظهر وجلس على عتبة المسجد الصغير للقرية، يفكر في أناس القرية، وفيما سيفعل، وماذا ستكون خطته. داهمت رأسه أنواع من الأفكار، أليس من الأفضل أن يكف عن التفكير، ولكن ماذا

سيحدث بعد ذلك، ألا يموت غضبا، وإذا لم يمت فسيضطر إلى أن يعمل في حقول التاكور بدون أجرة. لم يكن يريد أن يكون بطلا، ولكن لا يريد أيضا أن ينتظر لبطل ينزل من السماء لينجيهم من هذه التعاسة؟ فماذا سيفعل؟ وكيف سيقوم ضد هذا الاضطهاد وحيدا؟ فرجال القرية لا يجترءون، ربما تعودوا على ذلك الهوان بمرور الأيام، وأشرب ذلك الذل في قلوبهم. وخلال هذه الأفكار المتنوعة هبطت في رأسه فكرة طريفة كأنها نوع من الإلهام من عند الله تعالى، فأسرع إلى بيدر القرية حيث كانت جثة بقرة ملقاة على الأرض. كانت هذه الجثة لبقرة ماتت قبل أيام فتركها أهلها هناك بعد نزع جلدها لتكون غذاء للنسور والغربان، والآن لم يبق منها إلا عظامها. وعندما اقتربها شعر نوعا خفيفا من الرائحة الكريهة لا تزال تنبع منها، ففك السترة القصيرة من عنقه ولفها على أنفه ثم فصل عظما من صدر هيكل البقرة العظمي وبمساعدته بدأ يعد حزمة من العظام الصغيرة، وعندما سمع صوت الشيخ يؤذن للعصر ألقى نظرة على حزمة العظام وأدرك بأنه قد جمع عددا منها ستكفي لتنفيذ خطته، فحمل الحزمة على كتفه اليمنى وتوجه نحو القرية بخطا سريعة.

كانت نسوة القرية قد أكملن طحن القمح ويبدو من وجوههن إرهاقهن وتعبهن جليا، وكان رجال القرية قد جمعوا الطحين في عدة أكياس وضعوها عند شجرة النيم الكبير في وسط القرية، فكان موعد التاكور قريبا إذ يجئ دائما قبل الغروب بساعة. اقترب أويس من هذه الأكياس وبسط حزمته على الأرض، ثم ألقى نظرة على وجوه الناس فلاحظ في عيونهم سؤالات واستفسارات ومخاوف معا إذ لم يكونوا يعرفون ماذا سيفعل هذا الشاب الجرئ الذي حاول في إقناعهم منذ الصباح للنهوض ضد التاكور. تحديق الناس إليه بدون انقطاع أوجد في قلبه نوعا من الخوف لم يكن يعرفه، فخطر بباله للحظة أن يعدل عن فكرته ولكن صورة جدته العجوز تطحن القمح مرت أمام عينيه مثل لقطة للسينما فغلى الدم في عروقه، وبدون أية فكرة ثانية فتح الحزمة بسرعة فائقة، ثم بدأ يضع العظام في الأكياس ويدفعها حتى تغيب في داخل الطحين، وما أن وضع عظما في داخل الكيس الأخير سمع صوت الشيخ "أسرع، فقد لاحت لنا عربة الثيران من بعيد، وأنا متأكد هو الذي يجئ." وقبل أن ينتهي من دفع عظم في داخل هذا الكيس الأخير، رأى الشيخ قد ربط العظام

الباقية في الحزمة واندفع إلى بيته لإخفائها.

أوقف التاكور عربته عند الأكياس قائلا للناس "أسرعوا في تحميل الأكياس على العربة فأريد أن أصل بيتي قبل الغروب." فأسرع بعض الرجال وبدؤوا يحملون الأكياس على العربة، وكان من بينهم أويس، وعندما رآه التاكور قال له مبتسما "قد أضفت إلينا يدَين في حين كنا في أمس حاجة، فستعمل في مزارعنا بعد الغد." هز أويس رأسه وأجابه بابتسامة مريرة بدون أن يقول شيئا. وعندما تم وضع جميع الأكياس على العربة أدار التاكور عربته وحرك لجام الثورين فجريا بأقصى سرعتهما.

في الصباح التالي، استدعت زوجة التاكور بعض نسوة حيها لغربلة الطحين، وما أن فتحن الأكياس وأخرجن بعض الطحين صرخن بخوف وهزع وبدأن يرددن إسم إلههن وهن يقلن "قد أفسدوا الطحين...قد أفسدوا الطحين...قد أفسدوا الطحين". كان التاكور على باب البيت وعندما سمع هذا الغوغاء والجلبة دخل البيت فسكتت النسوة وأشرن له أن يلقي نظرة في الأكياس فاقترب من كيس ودُهش ما رأى فيه من قطعة عظم، وظانا ربما حدث ذلك

بالخطأ إذ لم يحدث هذا قط في الماضي، اقترب كيسا آخر فرأى فيه ما رأى في الكيس الأول، ثم رأى نفس الشي في أكياس أخرى وتأكد من أنه لم يحدث هذا بالخطأ بل تم هذا الفعل بالعمد. ركب حصانه بسرعة وتوجه إلى تلك القرية، كانت عيناه المحمرتان تدل على مدى غضبه، وعندما وصل القرية لم يجد فيه إلا النسوة والشيخ، فأطلق عليهن وابلا من السب والشتم، وقال للشيخ مهددا "أعرف، لا يتجرأ أحد أن يفعل هذا، أكيد هذا من عمل ذلك الشباب الجديد الذي جاء ليمتلك ملك أخيك، سأغيبه كما غيبت ابنك وأقتله كما قتلت ابنك من قبل." وبعد ذلك استدار للذهاب ولكن وجد أويس أمامه، وهو قد سمع كل ما قال التاكور للشيخ. وبدون أن يدرك ماذا في قلب أويس بدأ التاكور في سبه وشتمه وقبل أن يكرر تهديد قتله كان أويس قد اقترب من حصانه فقبض على رجله اليسرى وسحبها بقوة شديدة حتى ألقاه على الأرض وانقض عليه بالركل واللكم حتى جعله يتلوى من شدة الألم، ثم أخذ بتلابيبه وجعل يجره إلى الشجرة الكبيرة، وعندما وصلها وجد الشيخ قائما يعرض عليه حبالا لربط التاكور بالشجرة، فربطه بها ثم قال للناس القائمين هناك

"أعدوا ما استطعتم من قوة للقتال، فسنعيش حياة العز أو نموت." ثم توجه إلى التاكور وركله قائلا "نحن لسنا عبيدا لك، قد عملنا لكم منذ زمن بدون أجرة، جائعين وعاطشين، ولكن ليس بعد اليوم، قد استقلت بلدنا وأنت لا تزال تعتبرنا عبيدا لك. قد قتلت خالي لأنه رفع الصوت ضد ظلمك، سأنتقم له اليوم." ورفع العصا ليضرب على رأسه ويقضي على حياته ولكن الشيخ أخذ بيده قائلا "لا تقتله بل ضع هذا العظم في فمه، فهذا سيفسد دينه عليه ويعيد إلينا عزنا وشرفنا، ولدى خطة ربما تنجح." ففعل أويس كما قال له الشيخ، وعندما هدأ غضبه قليلا فك رباط التاكور الذي كان في حالة نصف إغماء وأجلسه على حصانه ثم قام بتوجيه الحصان إلى قرية التاكور وضرب على مؤخرته فجرى بسرعة.

وفي قرية التاكور كان قد بلغ أهالي القرية ما حدث بهذا التاكور، فاجتمعوا للنقاش في هذه القضية المهمة، فلم يواجهوا هذا النوع من المقاومة قط. قال أحد التكاكرة "لماذا لا نهجم على تلك القرية؟" قال الآخر "قد شاهدت نوعا من المقاومة ضدنا في القرى الأخرى، فبعضهم بدؤوا في العدول عن أمرنا بعد أن ظهر فيهم بعض الشبان

المثقفين الذين رجعوا من المدينة أخيرا. إذا هجمنا على هذه القرية، ربما قاموا بجنب أهاليها، فسيستحيل لنا أن نفتح عليهم." وبينما كانوا يناقشون الأمر في ساحة القرية ظهر لهم حصان ذلك التاكور وهو ملقى عليه، والعظم لا يزال في فمه، فظهر الغضب على وجوه الشباب في أشد صورة، واحمرت عيونهم، وشدوا على عصاهم بعنف، ولقد مضوا على طريق القتال إذا ألقى عليهم احد من ساستهم خطابا ناريا، ولكن هدأ غضب كل منهم عندما سمعوا أحد معارضي هذا التاكور يقول "هل نقبل هذا الرجل في مجتمعنا رغم أنه ذاق عظام البقرة التي بمثابة الأم لنا، إنه قد أفسد دينه، وسيفسد ديننا إذا مسسناه، فحذار تلمسه." فجرى على لسان كل منهم حذارِ حذارِ.

ثم تمت مقاطعة ذلك التاكور، وزوجته، وأبنائه في القرية حتى اضطروا أن يعيشوا مدى الحياة في غابة قريبة بعيدا عن قريتهم و بيتهم الموروث، ونجح أويس في أن ينجي الناس من ظلم هذا الإقطاعي ويجلب لهم الحرية بالمعنى الحقيقي.

(2019)

هات التوصية

هذه المرة، ضاق بالمقابلات الوظيفية ذرعا، فقد كان واجه عشرات من المقابلات الوظيفية عبر عدة شهور ماضية متوالية دون أثر للنجاح. في جانب كان بؤس عائلته يشغل باله ويؤرقه، وفي جانب آخر كان لا يمتلك من المال شيئا ليدفع لصاحب المنزل أجرة البيت، وقد تعود منذ أيام أن لا يتناول طوال النهار سوى وجبة واحدة فحسب حتى جعل يشعر بالضعف في بدنه.

ليس الأمر أنه لم يكن مزوداً بالمؤهلات المطلوبة بل إنما هو لم يكن يحظى بتوصية من أعيان الناس، كما لم يكن يتمتع بسعة من المال ليقدم منه الرشوة التي عادة تسهل أمور الناس في مثل هذه الظروف الحرجة، فلم يكن يتقدم للمقابلات إلا معتمدا على مؤهلاته وشهاداته. ومنذ عدة أيام ماضية كان يسعى جاهدا لمواجهة مقابلة عملٍ في شركة لكن كثرة المتقدمين للوظيفة، وطوابيرهم الطويلة للمقابلة لم تكن لتتيح له الفرصة لذلك وحتى ذات يوم انفض مجلس

هيئة مقابلة العمل حين لم يبق أمامه في الطابور سوى بضعة مرشحين.

ذات يوم، كان واقفا منذ صباح في الطابور ينتظر نوبته دون أن يتذوق لقمة من الطعام أو جرعة من الماء حتى جعلت حرارة الشمس تخف، وكاد المساء يحل مصحوبا بآمال وتطلعات، فلم يبق أمامه سوى شخصين أو ثلاثة أشخاص إذ برز شاب قوي البنية يمضى قدما، وبعد أن سلم لفافة إلى الحاجب جلس على كرسي ينتظر الجواب من الداخل، وبعد برهة برز شخص مفتول العضل مثل هذا الشاب الجديد وذهب به إلى الداخل. وعندما خرج هذا الشاب من غرفة المقابلة بعد نصف ساعة مبتسما وفرحا، استفسره أحد المرشحين بغاية من الفضول: "هل تم لك مواجهة المقابلة؟ فأجاب الشاب الجديد بنعم، وسأله عن سبب ذالك السؤال، فقال المرشح: قد تمت لك المقابلة مع أنك لم تحضر إلا آنفا، ولكن لم تتم لنا المقابلة مع أننا ننتظر منذ الصباح الباكر"، فأجاب الشاب قائلا: "تم لي النجاح لأنني جئت بالتوصية، وإذا أردت النجاح فهات التوصية." قال ذلك ثم عاد أدراجه. كان مصغيا إلى حوارهما بأذن صاغية وتأثر

به كثيرا، ولكن لم يظفر هنا إلا بخيبة الأمل، ثم استمر في مواجهة مقابلات في عدة شركات ولكن لم يعد منها أيضا إلا بخفي حنين.

وفي يوم من الأيام حدث أنه لم يكد يصل إلى بيته – بعد أن تحمل عناء حافلات دلهي المكتظة بالناس، وبعد ما قضى يوما شاقا واقفا في طابور المتقدمين لمقابلة عمل في شركة- حتى تلقى اتصالا هاتفيا يبشره بأن تم اختياره للوظيفة، وعليه أن ينضم للشركة في اليوم التالي، ولكن يجب أن يحضر المكتب اليوم في الساعة التاسعة. "فأجاب قائلا: "سيدي، قد أنهكني التعب وبلغ مني الجهد كل مبلغ فلا أتمكن من الحضور الآن ولكني أعد بأنني على أي حال سأصل غدا إلى الشركة قبل الميعاد، فرد عليه الشخص على الخط "حسناً" وقطع الاتصال. وفي اليوم التالي عندما ذهب إلى الشركة، أخبرته المرأة الجالسة في مكتب الاستقبال بأنه قد تم إلغاء اختياره إذ لم يحضر عندما دعي في الساعة التاسعة البارحة، فسألها قائلا: ولكن لماذا كل ذلك، فقد كان علي الانضمام للشركة صباح اليوم وها أنا حاضر قبل الميعاد، فأجابتها المرأة بأسلوب مهني بالغ: "قد تم اختيار شخص

آخر مكانك ولم تبق هناك أي وظيفة شاغرة،" ثم توجهت إلى شخص آخر.

وزاده الشعور بالخيبة تعبا وإرهاقا، حتى لم يعد يتحمل هذه الحالة المخيبة للآمال فجلس على كرسي خارج المكتب، وسرعان ما أدركت النظرات الثاقبة لحاجب المكتب العجوز مأزقه واليأس المسيطر عليه، فلم يتمالك أن يقترب منه شيئا ويهمس إلى أذنه قائلاٍ: يا بني لا يتم النجاح هنا إلا بالمال أو التوصية، ألم تدفع لهم أمس شيئا من المال؟ فأجاب قائلا "لو كنت أملك المال لما احتجت إلى شغل وظيفة ما، وأما التوصية فأنى لي ذلك في مدينة كبيرة مثل دهلي. ولم يلبث أن قام وغادر المكان.

ثم وصل إلى بيته والشعور بالفشل يسيطر على ذهنه وبحر الأحزان يموج ويصطخب في صدره، فلم يعد يتردد في رأسه إلا صدى كلمة التوصية، حتى أصيب بالهيستريا وظل يصرخ التوصية، التوصية، التوصية، مرارا وتكرارا، وكأن هذه الكلمة قد أصبحت ألد أعدائه والإخفاقات المتوالية قد أخلت بالاتزان العقلي لهذا المسكين تماما. (2005)

طفل المطعم

سمعت قرعا على باب شقتي، ولكن قبل أن أنهض لفتح الباب سمعت صوت مصراعيه يفتتحان ويدخل منهما شاه روخ في ملبس طبيب مهني. منذ أن تسربت جائحة كورونا إلى الهند، وظهرت حالات الإصابات، كان يقضي معظم أوقاته في المستشفى بوصفه رئيس الأطباء، وتفانيه في مهنته جعله يلزم المستشفى أكثر من بيته. توجه توا إلى غرفته وهو يقول لي" عفوا يا أبتي للتأخير، دعني أغير ملابسي واغتسل ثم أحضر لك العشاء." كلما قال لي "يا ابتي" شعرت كأن كل تعبي غاب عني، ودخل علي نوع من السرور والسعادة لا مثيل له، واليوم كم كنت سعيدا!، فهذا الولد يتفانى في خدمة الوطن والإنسانية، وأي سعادة أكبر من ذلك في الدنيا والآخرة. وبينما كان شاه روخ في غرفته داهمتني ذكريات الماضي.

كانت شقتي في الطابق الثالث من المبنى الذي يقع أمام سوق الخضراوات. وفي الطابق الأرضي من المبنى كان موقف السيارات، وأمام واجهة المبنى اصطفت هناك ثلاثة دكانين. وفي إحداها كان

ذلك المطعم الصغير الذي كنت اتردده للشاي أو الفطور في حال غياب زوجتي. كان ذلك المطعم لا يعرض إلا الشاي وبعض الحلويات وبعض أطباق الفطور التي يتناولها الناس في الهند وهي بوري سبزي، و سموسا و بريد بكورا. منذ أشهر رأيت فيه ولدا صغير لم يتجاوز ثماني سنوات من عمره، كان يعمل منذ صباح باكر حتى منتصف الليل في ملبس قذر، يسمع طلبات الزوار و يحضرها لهم، وكان هدفا سهلا لصاحب المطعم، فكلما تأخر عن العمل، أو أظهر تعبه كان يتعرض للتوبيخ منه، وكان الزوار ينادونه باسم شاه روخ، وربما كان لإسمه أثر على نفسه، ففي بعض الأحيان شاهدته في أوقات الفرصة من شرفتي وهو يحاول أن يبدو كأنه هو الفنان الشهير شاه روخ خان في الحقيقة، فيجلس أمام المرآة و يعاين وجهه بكل دقة ويمسح شعره عدة مرات ليشبه مثله. كان يعمل في هذا المطعم رغم أن الحكومة قد حظرت عمالة الأطفال، وعندما كلمت صاحب المطعم بصدد عمالة الأطفال، هز رأسه قائلا، من يبالي بالقالون، الحكومة تضع القوانين فقط ولا تقوم بتطبيقها قط.

كم من مرة أردت أن أكلم ذلك الطفل إذ رثيت لحاله و لكنني لم أجد فرصة. يوما نزلت إلى المطعم بعد الظهيرة عن قصد لأتكلم معه إذ عدد الزبائن في مثل هذا الوقت قليل دائما، فوجدته جالسا عند عمود دكانه الذي مثبت فيه صنبور الماء، وكان يغسل في ذلك الحين ملبسه. جلست إليه و بدأت أستأنسه، وأستفسر عن موطنه، وأسرته، وعمن هم في بيته، وأسئلة تساعد لإجراء الكلام مع شخص أجنبي. فقال لي مبتسما "أنت رجل كريم، فلم يسألني أحد هذه الأسئلة قط من قبل، كل واحد يأتي هناك ليأمرني فقط، ليس لي إلا أن أسئل الناس عن طلباتهم. ألا يمكن أن تجد لي وظيفة أفضل؟" بينما كان شاه روخ يقول لي هذا، لاحظت أن صاحب المطعم الذي تظاهر أولا كأنه شغلته قراءة الصحيفة اليومية عن كل شيئ في مثل هذا الوقت من قلة المرتادين، ألقى علينا نظرة خاطفة فيها نوع من الإستهجان، وهذا كشف لي بأنه كان يصغي إلينا منذ بداية حديثنا. عندما توجهت إلى شاه روخ من جديد وجدته ينهض وهو يقول لي: "دعني أدعو أبي، فإنه يعمل لدى البقال في ذلك السوق"، وأسرع خطواته إلى سوق الخضراوات. قمت من مكاني وجلست على مقعد لدى صاحب

المطعم، وكان بيننا معرفة جيدة إذ كنت جاره وأحد زبائنه المنتظمين في حال غياب زوجتي خلال العطلة. عندما رآني أجلس على أحد مقعد سألني هل أريد شيئا فلم أقل له شيئا بل طلبت الصحيفة اليومية بإشارة وبدأت أتصفحها بدون أن أقف على أي صفحة ولو حتى لقراءة العناوين. ولم أصل الصفحة الأخيرة حتى سمعت صوت شاه روخ "سيدي هذا أبي" وقبل أن أرفع نظري وأقول له شيئا، بدأ صاحب المطعم يوبخه قائلا "أين غبت؟ كلما تجد فرصة تجري إلى أبيك، الأواني لا تزال قذرة، ولم تكمل غسل الملابس بعد..." قاطعت كلامه قائلا "دعه، هو طفل صغير" فقد كنت لمست حياء في عيني أبيه واضطرابا ناتجا عن اضطراره. كان رجلا نحيفا، يتجلى منتهى فقره من ملبسه القذر. كان النصف الأعلى من جسمه عاريا تماما، وكان على النصف الأسفل نوع من الرداء يعرف في الهند بإسم "لُنغيِ أو دهوتي أو ته بند". في هذه الآونة، قررت شيئا لم يخطر ببالي قط، وربما كنت شعرت نوعا من الحب لهذا الولد، وهو أن أتبناه ، فتنحيت بأبيه في جانب، وقلت له:

"أرى في وجه ابنك ملامح الرجال الكبار، دعني أعلمه، وأربيه، ربما أنت تكسب ما يكفي ليسد رمقك. وفيما أظن لا يعطيك هذا الولد إلا خمسين روبية، أو مئة روبية على الأكثر، فلا يكسب إلا ثلاث مئة روبية في شهر." نظر إلى نظرة يتجلى فيها ارتباك وشك ثم سألني "أين تذهب به؟" وجوابي رفع شكه وارتباكه، فقلت له "لا أذهب به إلى أي مكان آخر، سيمكث في هذا المبنى في شقتي ويتعلم في المدرسة، ويمكنك أن تلاقيه متى تشاء." فهز رأسه في الرضا، وهل هناك أب لا يريد خيرا لولده.

اندهشت زوجتي عندما رأت شاه روخ، ولم تكن مستعدة لتبنيه عندما رأته للوهلة الأولى، ولكنني حدثت إليها عن كبر سننا التي تكبر يوما فيوما وتشعرنا بأننا نهرول بسرعة إلى الشيخوخة، وذكرت لها ما قال لنا الطبيب في الشهر الماضي بأنه لا يمكن أن تصبح هي حاملا أو تلد ولدا في هذا السن، فأحنت رأسها راضية بتبني شاه روخ، وراضية بما قدر الله لنا. مات أبو شاه روخ بعد ثلاث سنوات من تبنيه، وماتت زوجتي بعد أن نال شاه روخ القبول في كلية طبية شهيرة بدهلي، ولكنها قبل موتها كانت سعيدة، فكان لديها ابن يحبها

بقلبه ويخدمها بإخلاص، وربما لا يخدم ابن حقيقي مثله، كانت ماتت مطمئنة إذ عرفت بأن هناك ابن يهتم بي، قطع تسلسل أفكاري صوت شاه روخ إذ قال لي" أبي، العشاء جاهز، هل نأكل على فراشك أو أضعه على الطاولة في غرفة الأكل وانتظرك؟"

(2020)

الرجل الصامت

مرحبا،

كيف حالك؟

لديك دقيقة؟"

ظهرت رسالة على شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص بي، وعندما لاحظت إسم المرسلة، بدأ قلبي يدق بسرعة فائقة، وقبل أن أتمكن من الرد على الرسالة، تبعتها رسالة أخرى.

"لقد فرغت من مشروعي الحالي قبل أيام، والآن أبحث عن مشروع جديد. وفي حال وجود أي متطلبات لإخصائي مثلي في مشروعك، المرجو منك إبلاغي بذلك."

وبينما كنت أفكر فيما أرد به إذ تحول مؤشر حالة المرسلة على سكايب إلى اللون الأصفر الذي دل على أن المرسلة قد ابتعدت عن مقعدها. في ذلك الحين كنت منهمكا في حل مشكلة ذات أهمية كبيرة ولكنني لم أدرك متى توقفت أصابعي عن الحركة على لوحة المفاتيح، وتعلقت عيني بالرسالة وذكريات الماضي بدأت تصدع رأسي. كنا

نعمل في نفس الشركة منذ سنوات عديدة ولكن لم يحدث قط أن التقينا وحتى بالصدفة بعد ما أنهينا مشروعنا الأخير معا. لقد كانت تلاشت عن ذكرياتي تقريبًا، ولكن هذه الرسالة أعادت كل شيئ إلى ذهني من جديد.

في ذلك اليوم، ما إن عدت بعد الغداء، حتى دخلت في قاعة العمل فتاة شابة كانت رشيقة وجميلة، وظهرت قطرات العرق على وجهها الجميل تشبه الورود الحمراء التي تلقت قطرات الندى الطازج في الصباح الباكر. أذهل جمالها الجميع تقريبًا، وكل من ألقى نظرة عليها لم يتمكن من غض عينيه، ارتسمت ابتسامات على وجوه الرجال كأنهم رأوا شيئا سيوفر لهم سكينة قلبية كلما رفعوا أنظارهم من شاشة الكمبوتر المتعبة خلال دوام العمل. كانت قد تخرجت في كلية مرموقة، وانضمت إلى الشركة كموظفة جديدة، وكان تم تعيينها في مشروعنا للمرة الأولى.

كان مشروعنا مشروعًا جديدًا لشركة أوروبية وكنا قد بدأنا للتو في تشكيل فرق عديدة لدعم مختلفة. لقيت بمدير مشروعنا، وحسب توجيهه، انضمت إلى فريقي في المشروع، وبمرور الوقت تآنسنا،

وتوافقنا بشكل جيد، وكنا نتحدث ونناقش العديد من الأشياء في قاعة العمل. لا أتذكر كيف بدأ كل شيء ولكن كان يحدث كل يوم تقريبا أن أختلس النظر إليها عدة مرات عن غير قصد ولسوء حظي في كل مرة تلتقي فيها أعيننا، وفي تلك اللحظة، كانت ترفع حاجبيها كما لو كانت تسأل ماذا، ثم تبتسم ابتسامة حلوة وتعود لعملها من جديد. أما أنا فكنت أشعر كأنها فضحت سرقتي، فتحمر خدودي، وأعود إلى عملي بقلب يخفق بسرعة فائقة كما لو عدت للتو من ماراثون، وأقرر أن لا أنظر إليها مرة أخرى ولكن بعد ساعة أجد عيني ترتفع إليها دون اختيار مني.

كان عيد ديوالي قريبا، وكان علينا أن نقوم بتزيين قاعة العمل لمشروعنا مثل العروس للمشاركة في مسابقة تعقد بين قاعات العمل للمشاريع المختلفة. كان جميع الفتيان والفتيات يرتدون ملابس هندية مما جعل بيئة المكتب مختلفة تمامًا وأعطتها مظهرًا احتفاليًا. كانت ترتدي ملبس ساري الأسود[1] مع تطريز فضي، ووضعت القليل من الماكياج، وفي الواقع لم تكن في حاجة إلى الماكياج لجمالها المتميز. انسدل

1 وهو الملبس الهندي الشهير

شعرها الطويل مرسلا إلى الأسفل ووضعت بيندیا[1] صفراء على جبينها مما كان يزيد جمالها. لقد فتنت بمظهرها ولم أستطع أن أرفع نظري عنها حتى بعد كل جهودي. لاحظت هذا عدة مرات إذ تم بيننا التواصل البصري، وفي كل مرة ابتسمت وتجاهلت. كانت الأكثر نشاطًا بين الفتيات في تزيين قاعة العمل، وأنا بنفسي تطوعت كما أردت البقاء بالقرب منها.

في صباح اليوم التالي، كانت قاعة العمل هادئة ولم يكن هناك سوى عدد قليل من الناس. كنا جالسين على مقاعدنا مشغولين بعملنا كالمعتاد ولكن بمجرد أن التقت أعيننا في ذلك الصباح لأول مرة، لم تبتسم ولم ترفع حاجبيها حسب العادة بل نهضت من مقعدها وبدأت تسير نحوي. وعملها هذا أدهشني فلم أدرك ماذا سيحدث، ربما تفعل شيئا قد يهينني أو يحطم مسيرتي في العمل، أو ربما أو ربما أو ربما... أفكار كثيرة ملأت رأسي في بضع ثوان، وكان قلبي يدق بسرعة فائقة حتى شعرت كأنني أسمع دقاته، وبدأت رجلاي ترتعشان. ألقيت نظرة على بعض الأشخاص الآخرين الموجودين في قاعة العمل

---

1 نقطة ملونة تضعها نسوة الهندك على جباههن

ولكن الجميع كانوا مشغولين بشاشات الكمبيوتر غارقين في عملهم. لم تستغرق إلا عشرين ثانية فقط للوصول إلي، ولكن خلال هذا الوقت مرت مئات الأفكار في برأسي مما جعلني متوترا وقلقا لأنني لم أكن على دراية بما كان سيحدث. جاءت مباشرة إلى، ووضعت يدها اليسرى على الكرسي مائلة نحوي ونظرت مباشرة في عيني كأنها تحاول أن تخيفني ثم ظهرت على شفتيها ابتسامة حلوة وهي تقول لي: "هل يمكننا أن نذهب معا إلى كانتين لتناول الفطور؟" لم تكن هذه هي المرة الأولى التي كانت تحدثت فيها إلي، ولكنها كانت تدعوني للمرافقة وقبل أن يخرج من فمي شئ، أخذت بمعصمي وجرتني إلى المصعد فشعرت كأنني انقاد لأوامرها بدون إرادة. في المصعد كنت صامتا أفكر في كيف أبدأ الكلام وأتطرق إلى الحديث معها. عندما جلسنا على طاولة معا، هي طلبت وجبة ماسالا دوسا[1] مع الشاي الساخن، وبدأت مرة أخرى في الحديث عن نفسها، فتحدثت عن القضايا المتعلقة بالمكتب وأسرتها وهواياتها، وطوال الوقت بقيتُ أحدق في وجهها الجميل وأستمع إلى صوتها الحلو، وفي النهاية ظننت

[1] طبق معروف من جنوب الهند

أنها تحب التحدث كثيرًا بقدر ما أحب التزام الصمت.

بعد ذلك اليوم تناولنا الفطور معًا مرارا، وفي كل مرة كنت أستمع إليها فقط ولا أقول إلا نعم، أو حسنًا، أو بعض كلمات أخرى تؤكد أنني أستمع إليها، وخلال كلامها كنت أشعر كأنني أهيم في عينيها العميقتين الزرقاوين، وفي بعض الأحيان كنت أنظر إلى شفتيها اللتين بدتا كأنهما بتلتان من وردة حمراء طازجة.

وأخيرًا، في أحد الأيام عندما كنا نتناول الفطور، هي تركت مساحة الكلام لي قائلة "اليوم أنت تتحدث، وأنا أستمع إليك فقط". لقد دهشت عندما سمعت هذا، غير مدرك تمامًا لما أتحدث به. فكرت أن أحكي لها قصة وبدأت أفكر في قصص مختلفة قرأتها حتى ذلك الوقت، لكن كل القصص التي تمكنت من استعادتها في ذهني كانت مثل المقاطع غير المنظمة. ثم فكرت أن أطلعها على معلومات عن عائلتي، ولكن لم أرى من المناسب أن أجعل البيئة شجينة ومهمومة بذكر أحوال والدتي العجوز التي تحتاج إلى رعاية، بذكر شقيقي الأكبر الوحيد الذي تركنا بمفردنا بعد زواجه وانتقل مع أسرته إلى مدينة أخرى للعمل، أو عن نفسي الذي يقوم بالأعمال المنزلية قبل المجيء

إلى المكتب. كنت أحاول أن أجد شيئًا مناسبًا للبدء ولكن بدون فائدة. وفي هذه الأثناء هي استمرت في النظر إلى وجهي، والتحديق في عيني، وانتظرت لبضع دقائق ثم وقفت وانحرفت قليلاً نحوي بوجه غاضب: "أعرف أنك تحبني لكنك لم تتجرأ أن تقول لي هذا. لا يمكنني أن آخذ بزمام المبادرة في كل مرة. أنت رجل صامت ممل. سوف أتزوج في الشهر القادم من رجل آخر قد أخذ زمام المبادرة وتحدث إلى أسرتي في الأمر. إنه لا يستمع لي فقط بل يتحدث معي أيضًا". ثم حملت حقيبتها اليدوية، وتولت وهي تتذمر، وخمنت بسهولة ما كانت تقوله إذ كنت اعتدت أن أفهم كلامها بحركات شفتيها فكانت تتذمر كأنها تشتم "الرجل الصامت". أحسست ماء حائرا في عيني فمسحته بخفية بدون أن يرى ذلك أحد، وهكذا انهدمت قلعة الحب التي كنت شيدتها في خيالي خلال بضع شهور ماضية.

شعرت بيد على كتفي يهزني، وسمعت صوتًا يقول لي "يا أخي ، كنت تعمل على قضية حرجة، ماذا حدث؟ لماذا توقفت في منتصف الطريق؟ يرجى الانتهاء منه في أسرع وقت ممكن لأن العميل سيتصل

بنا مطاردا". شعرت كأنني أفقت، ونظرت إلى الأعلى فرأيت وجه مديري المتوتر. فاستردت أنفاسي، وقلت له للتو "موافق" ثم بدأت أصابعي تتحرك على لوحة المفاتيح كما كانت تعمل قبل بضع دقائق. وبدأ الشعور بالوحدة يتسلل في ذهني، مما جعلني أتساءل عما إذا كان الاعتقاد السائد حول كون المرأة كثيرة الكلام، وعدم رغبتها في الاستماع خطأً كما حدث في حالتي.

(2019)

قارب الكراهية

رأيت سانجاي في نهاية الصف الطويل. كان لا يزال وسيمًا كما كان دائمًا، ولكن بدا قوامه العملاق كأنه تقوس قليلا، وعلامات التوتر وقطرات العرق على وجهه كانت تحكي قصة تعبه وقلقه. كان ابن صديق طفولتي الحميم الذي انتقل إلى بلد أجنبي مع زوجته منذ فترة طويلة بحثًا عن حياة أفضل وفرصة جيدة، واستقر هناك بشكل دائم. وُلد سانجاي ونشأ هناك وحصل على جنسية ذلك البلد لكنه زار قريتنا عدة مرات مع والديه.

قبل خمس سنوات عندما توفي والده، عاد إلى القرية لبيع ما ورث عن أبيه من ممتلكات بما فيها بيته وعدة قطعات من الأرض. ذهبت للقائه بدافع العطف وذكريات صديقي الحبيب، وحاولت إقناعه بعدم بيع هذه الممتلكات فهي ستوفر له حيلة لزيارة أقاربه وتساعده في البقاء على اتصال بجذوره، ولكنني لم أحصل على أي نوع من الاهتمام والاحترام اللذين كنت توقعتهما منه. كان سنجاى بمثابة طفلي تمامًا، ولكنني لمست في عينيه موجات الكراهية التي أظهرت

فظاظة ما كان يحدث في ذهنه بوضوح. كنت على دراية بالمواقف السائدة في المجتمع في ذلك الحين، وعرفت كيف أن سياسة بلدنا اتخذت منحنى في بضع سنوات ماضية وكيف بعض الساسة المتعصبين والأحزاب المتطرفة شمرت عن ساقيها لاستقطاب الأغلبية الهندية عن طريق بذر جذور العداوة الشرسة في قلوبهم ضد الأقلية المسلمة، وذلك لمجرد الوصول إلى السلطة لكى يتم تحويل البلد من ديموقراطية إلى ثيوقراطية، ومن دولة علمانية إلى دولة دينية هندوسية. لم يخطر ببالي قط أن هذا المرض كان انتقل إلى المواطنين الهنود الذين يعيشون في الخارج أيضًا ويتمتعون بحقوقهم في المجتمعات الحرة في بلدان أوربا وأمريكا، وأن هذا الصبي قد أصيب بنفس الحمى ويفكر في نفس الاتجاه. عدت إلى منزلي وأنا أشعر بالألم فجلست على السرير مصعوقا لساعات. في الأيام القليلة القادمة، بدأت أفكر عما يجب على أن أذهب إليه ثانية وأقنعه على التخلي عما يروم إليه أو أتركه وشأنه. وبعد الكثير من التفكير، قررت أن أتحدث إليه مرة أخيرة.

كان ذلك آخر يوم سانجاي في القرية وكان من المفترض أن يغادر في المساء. بعد تناول الغداء، طلبت من ابني أن يفرش السرير تحت الظل البارد لشجرة النيم في فنائنا ويجهز نارجيلتي، ثم توجهت نحو منزل سنجائ. رأيته جالساً بين أبناء أعمامه فناديت به باسمه. توجه نحوي وعندما اقترب مني أمسكت بيده وأحضرته إلى فناء منزلي. طلبت منه أن يجلس على السرير وبعد أن أخذت الدخان الأول من نارجيلتي، ألقيت نظرة على وجهه، كان مثل والده تماما في المحيا والمنظر، وهذا جعلني أشعر بالحنين، فخاطبته، "هل تعلم؟ كلما استخدم هذه النارجيلة، هي تذكرني بأبيك، وأنا أستخدمه كل يوم مرتين على الأقل. شجرة النيم هذه هي شهادة طفولتي وطفولة والدك؟ لعبنا هنا لساعات معًا واسترحنا تحت هذه الشجرة في الصيف. كنا نستخدم فروعها الصغيرة كفرشاة للأسنان ونجمع ثمارها المريرة لدفع ثمن الشات[1] في سوق قريتنا مرتين في كل أسبوع. اعتدنا على شراء ورقتين (طبقين) للشات معًا وكنا نتناول الطعام جالسين على هذا التل المرتفع حيث ترى برجا ضخما من خزان المياه

[1] طبق هندي يباع في الطرق على العربة الخشبية

لآن." أثناء الحديث معه، وجدت نفسي منغمسًا في ذكريات الأيام الماضية من طفولتي، مرت برأسي ذاكرة مثيرة للاهتمام تلو الأخرى، ولم أستطع التحكم في ابتسامتي كما سألته، "هل تعرف العم شُبراتي؟

وبدون أن انتظر رده، واصلت الحديث، "العم شبراتي كان أحد المزارعين الثلاثة في قريتنا الذين كانوا يزرعون بذور الحمص، كان أفضل شيء أن أحب الجميع مضغ أوراق نباتها الخضراء مع صلصة الفلفل الأخضر، وكذلك ثمارها الأخضر بعد تحميصها على النار. أنا ووالدك كنا ندخل في مزرعته خلسة لننتزع القليل من الفروع وكلما سمعناه يصرخ "من هناك؟" كنا نطلق ساقينا للريح، ولم يتمكن من أن يمسك بنا قط، وكذلك لم نلتقط قط أكثر مما كنا نحتاجه." لقد نظرت للتو إلى سانجاي فوجدته يصغي إلي بكل جوارحه ثم واصلت الحديث. "هناك الكثير من الذكريات التي نتشاركها معًا، أحدها مرتبط بأيامنا المرحة خلال فصل الشتاء. كان تم ثبت كسارة قصب السكر وراء مصلى العيد في قريتنا. ربما رأيت تلك الساحة البيضاء الكبيرة والقديمة في الطرف الشرقي من قريتنا. كان الثيران يتحركون بشكل دائري طوال النهار والليل والنار مضرمة تحت

مقلاة كبيرة يغلي فيها عصير قصب السكر الطازج لصنع كرات مدورة، كانت تلك المناسبة كنوع من الاحتفال لنا فكنا نستمتع كثيرا." التفتت إليه ووجدته منشغلاً بالأفكار. لقد انفتحت على شخص ما بعد سنوات عديدة وشعرت بالحنين الشديد، كما يبدو أنه يهتم بما يسمعه مني، فلم أكن أتحدث عن نفسي فقط بل عن والده الشفيق أيضًا. الآن فكرت في الوصول إلى النقطة. خاطبته مباشرة قائلاً: "عندما زار والدك القرية في المرة الأخيرة تحدث عنك كثيرًا. قال لي "ابني في طليعة النشطاء بشأن حقوق الشتات الهندي هناك." فشعرت بالسعادة حيال ذلك لأنني أدركت أنك تحب الثقافة والتقاليد الهندية. ولكن بدا قلقا للغاية عندما أخبرني عن نشاطك الآخر، وكذلك أزعجني أيضا.

-ماذا اخبرك؟

-"أخبرني أنك وقعت في حبال منظمة فاشية متطرفة لا تؤمن بتعددية الدولة الهندية وتريد أن تخضعها لعقيدة متطرفة متعصبة لا تكون السلطة فيها إلا لطبقة خاصة، وهي لا تؤمن بالمساواة بين الطبقات المختلفة بل يفضل البعض على الآخر. إنها تسعى إلى معاملة

الناس بشكل تمييزي على أساس الدين والعرق وتلعب سياسة استقطاب الأغلبية من خلال اضطهاد الأقليات الدينية في بلدنا طوال الوقت. قال أبوك لي إنك تتبرع بجزء كبير من راتبك لتلك المنظمة المتطرفة بانتظام".

ألقى علي سانجاي نظرة عابرة ثم بدأ يحدق في قدميه وقال بصوت أعلى قليلاً ربما يحاول أن يبدو واثقا بنفسه أكثر مما كان من قبل "نعم يا عمى." توقف للحظة ثم تابع "أريد أن يكون ديني هو الأسمى ويحكم ليس فقط هذه الدولة بل العالم كله".

-وهل تجيز تلك الفكرة لك أن تكره أصحاب الأديان الأخرى؟ هل تعتقد أنه سيتم ذلك بنهب حقوق الآخرين، واضطهاد متبعي الأديان الأخرى؟

-"عمي، إخواني في الدين يتعرضون للمضايقة والقمع في البلدان المجاورة لنا".

-"يا بني، لن أخوض في التفاصيل سواء كان ما قلته يحدث بالفعل أم لا، ولكن هل هذا يعني أنه يجب عليك أن تفعل الشيء نفسه هنا في الهند أيضًا؟ ألا تعتقد أنك تفعل شيئين متناقضين؟

كونك أقلية في الشتات هناك، فأنت تقاتل من أجل حقوقك هناك وتحصل عليها أيضًا ولكن في نفس الوقت، أنت تدعم أولئك الذين يريدون تجريد الأقليات من حقوقهم هنا بغض النظر عن حقيقة أن الأقليات هنا ليست من الشتات ولكن أبناء هذه التربة. دعني أوضح لك نقطة هنا. إذا ألقيت نظرة على شجرة الأنساب الخاصة بنا وعدت عشرة أجيال إلى الوراء ، فستجد أن أسلافنا كانوا من أب واحد، وهذا ينطبق على الآخرين أيضًا، ربما أنا أتبع دينا آخر ولكن نحن من نفس السلالة، وكذلك الآخرون.

- "عمي ، كان هناك الكثير من الظلم خلال فترة القرون الوسطى."

-"لا أخوض في تفاصيل تاريخ الماضي، ولكن إذا كان هناك عنف، فهل يجب أن نستمر كما كنا في السابق؟ أعتقد أنه إذا كان الأمر كذلك، فيجب أن نتعلم الدرس، ويجب ألا نكرر خطأ الماضي."

-"عمي لا أريد أن أجادل، علي أن أغادر فليس لدي الكثير من الوقت."

-"يا ولدي، أنا شخصياً لا أريد أن أجادلك، أردت فقط أن أجعلك تفهم أن بلدنا بلد متنوع للغاية من حيث الأديان والعرق والثقافة وحتى اللغات. إن المنظمات العنصرية لن تضر إلا بالسلام والوئام، وتزعزع استقراره. الشيء الوحيد الذي أود أن أنصحك به هو أن كل ما تفعله يجب أن يستند إلى البر والكرم".

ثم غادر، وبعد ذلك اليوم لم أره إلا اليوم. من وقت لآخر تلقيت أخبار نجاحه وثروته ودعمه النقدي لتلك المنظمة المتطرفة والعنصرية التي نمت يومًا بعد يوم حتى وصل جناحها السياسي إلى دفة الشؤون في بلدنا بعد الكثير من الدعاية ثم بدأ في خلق الفوضى من خلال تمرير القوانين الصارمة وتصنيف الناس على أساس الدين. قبل شهرين، في تلك الدولة الأجنبية التي عاش فيها سانجاي، بدأت الحكومة في ملاحقة الأشخاص الذين يدعمون المنظمات العنصرية حيث أدركوا أنهم نجحوا في إبقاء المتعصبين والمتطرفين من عرقهم في وضع حرج وعلى حاشية ولكنهم لم يتمكنوا من رصد الأشخاص الذين جاؤوا إلى تلك الدولة من الخارج وتورطوا في دعم المنظمات المتطرفة والعنصرية. وعندما رأيت سانجاي اليوم

واقفا في نهاية الصف الطويل أدركت أنه قد تم طرده من تلك الدولة، والآن هو قائم هنا لإثبات مدنيته الهندية كما انا قائم في هذا الصف الطويل.

"عمي أرني مستنداتك" أعادتني كلمات المسؤول هذه من محيط أفكاري، وأدركت أنه حان دوري الآن. سلمت أوراقي إليه، وبعد أن تأكدت من كل شيء، وقفت جانباً في ظل شجرة زنبق حيث كان بعض الأطفال يشربون الماء من المضخة اليدوية. انتظرت أن يقوم سانجاي بتقديم أوراقه، وعندما انتهى، ألقى نظرة علي ومر بي ولكنه لم يعرني أي اهتمام، وعرفت أن الكراهية الجماعية للأقلية المسلمة قد وصلت إلى نقطة اللاعودة.

عدت إلى منزلي، وجلست على سريري أفكر في نوع الهند التي حصلنا عليها من البريطانيين، وكيف تم إصلاحها قليلاً من قبل الآباء المؤسسين الذين استوعبوا تنوع المنطقة والدين واللغة والثقافة مع الاحترام الواجب لكل منها، ثم كيف نمونا وتطورنا وواجهنا تحديات مختلفة وأخيرًا كيف اكتسحت البيئة البغيضة في طول البلد وعرضها مما أدى إلى انقسام عميق في المجتمع الهندي على الخطوط

الدينية، وسحق أحزاب المعارضة وإسكات كل صوت يتحدث عن المساواة والعدل، وهذه الكراهية تبدو كأنها تأكل بلدنا من الداخل كالديدان.

(2019)

الفهرس

تقديم 7

كلمة الكاتب.....13

أمل على التل الصغير 21

بين صفوف السيارات.....29

مجتمع مسموم.....34

مسلوب الكرامة 41

جامع القروش 52

آصفة 63

نصف الموز.....69

عظام العز.....76

هات التوصية.....84

طفل المطعم 88

الرجل الصامت 94

قارب الكراهية 102

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.